يوكو أوغاوا

غرفة مثاليّة لرجل مريض

رواية يابانيّة

ترجمة بسام حجّار

دار الآداب

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

يوكو أوغاوا

غرفةٌ مثالية لرجلٍ مريض

ترجمة: بسام حجّار

دار الآداب - بيروت

twitter @baghdad_library

غرفةٌ مثالية لرجلٍ مريض

يوكو أوغاوا/روائيّة يابانيّة

ترجمة: بسام حجّار

الطبعة الأولى عام 2005

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

حين أفكّر في أخي الأصغر، يدمى قلبي كرمّانةٍ مفلوقة. أسأل في سرّي لماذا. ربّما لأنّنا كنّا اثنين ولم نحظَ بالكثير من العطفِ من أبوينا. وأعتقد أيضاً لأنّه مات في عزّ صباه. موتُ فتىً في الحادية والعشرين من عمره أمرٌ يصعبُ تخيّله. في السنّ التي لا تعرفُ إلاّ أقلّ الأواصر مع الموت.

لذلك تحسّرت كثيرًا على صبا أخي. ولم أتحسّر، من قبل، بهذا القدر على أحد. لا على أبي، ولا أمّي ولا زوجي، ولا حتّى عليّ أنا.

عندما ينتابني الحزن، لسببٍ أو لآخر، أتذكّر الساعات التي كنت أقضيها بقربه. نسائمُ نهايةِ خريفٍ، ناعمةٌ، تتسرّبُ من خرومِ دانتيلاّ الستارة وتهبّ مُداعبةً سريره. في جلوسِه المعتاد، متّكئَ الظهرِ إلى وسادةٍ من الريش، أراهُ جانبيًّا. أنظرُ إليه مسترخيةً على الكنبة بجانب السرير. أوقات بعد الظهر تكون غارقةً في السكون فتكادُ أن تُسمَع

twitter @baghdad_library

قطرات المصلِ الذي يَقْطُرُ وئيدًا. الغرفة نظيفة ومرتّبة. أرضيّة المرحاض وخزف جرنه قد غسلا، والملاءات، منشّاة، لا شَوْبَ فيها. كلّ مجالاتِ الحديث متاحة لنا. نتائج كأس اليابان لبايسبول المحترفين، البرسترويكا في الاتحاد السوفياتي، أنجع السُبُل للاتفاق مع المحامين. أو، إذا تعذّرت المحادثة، فَحُزنٌ وألم. يشملني صوت أخي بغلالةٍ رقيقة. وعندما نكون متعبين من الكلام نلزم الصمتَ ولا نبرحه لكي ندفّئه بحضورنا. ملامحُ أخي الجانبيّة، وهنا وجه الغرابة، تبدو لي بمثل شفافية أبدان الرخويّات. لا شيء يعكّر صفوَ قلبي. يومُ سبتٍ مثالي.

أخي ماثلٌ أبدًا في ذكرى ذلك السبت المثالي. إلى اليوم، ما زلت أذكر بوضوح خيالَه كأنّه منحوتٌ على قطعة زجاج.

لم أعْتَد بعدُ ألاّ ألتقيه إلاّ على هذا النحو في ذاكرتي. ولا أدري ماذا أصنع بكرة الانفعال هذه التي تخنقني عندئذ. تكبرُ باستمرار في موضعٍ ما بين أضلعي، كأنّ الدمَ الراكد يولّد عِقَدًا جرّاء تخثّره. عندما أشعر بذلك، أهدّئ من تسارع أنفاسي لكي لا أنفجر على نحوٍ مدوٍّ. أتشبّع من ذكرى غرفة مرضه الساكنة، ورجائي أن أكون قادرةً ذات يوم على نسيانه بيُسْرٍ لا أقدر عليه الآن.

أقضي ساعاتٍ وساعاتٍ وأنا أفكّر في أخي. لم يسبق لي، إلى اليوم، أن فكّرتُ فيه طويلاً على هذا النحو. قبل أن يمرض، كان موجودًا، كما توجد النظريّة، داخلَ إطار محدّد بوضوح يُسمّى الأخ الأصغر، فلا حاجةَ بي إلى التفكير فيها. خاصّة بعد أن غادر للالتحاق بجامعةِ إحدى المدن الصغيرة على ساحل بحر الداخل. ولكن أعتقد أنّ هذه العلاقة راحت تنمو منذ يوم اتّصاله هاتفيًّا مستنجدًا بي.

ـ طبيب الحيّ قال إنّه من المستحسن أن أتعالج في المستشفى. هل يزعجك أن تتدبّري لي موعدًا في المركز الجامعي حيث تعملين؟

كان يُكلّمني بقدرٍ كبير من التحفّظ. ولعلّ هذا التحفّظ هو الذي شقَّ عليّ تحمّله، وليس قلقي بشأن مرضه. إلى ذلك، كانت أمور تافهة جدًّا هي التي تُشغل بالَه. البيض أو قناني الكَتْشاب المتبقّية في الثلاّجة، وبطاقة العضويّة في نادي السباحة التي حصل عليها مؤخّرًا، وتصنيف الملفّات التي طلبها منه المشرف على دروسه الجامعيّة. أمور كلّ يوم التي يمكن دائمًا تأجيلها إلى يوم آخر. تُراه كان يعتقد أنّه قد يتخلّص من الأعباء الثقيلة والمفاجئة كمرضه وانقطاعه عن الدراسة وعودته إلى دياره، بسهولةِ رميه فضلات الثلاّجة في سلّة مهملات؟

twitter @baghdad_library

على كلّ حال، لم يعد هنا. أمكنني التثبّت من ذلك مِرارًا. عند استلام الإشعار بمصاريف دراسته غير المدفوعة، وعندما أضع بيجامته المغسولة المكويّة في خزانة ملابسه، وعندما ألمح بطاقة أخرى ملصقةً على باب غرفته. وفي كلّ مرّة همستُ قائلةً: «أعلم. أعلم. لقد فهمت الآن، دعوني وشأني».

على سرير غرفته في المستشفى، لم يفقد شيئًا من لطفه ورقّته المعهودين. قُذالُهُ المنعّمُ على أحسن ما يكون، والهواء الذي يزفره نقيًّا. لهذا أشعر بأنّني حزينة. الحزن الذي يُلمّ بي بطفراتٍ، كأنّني مُصابةٌ بِنَوْبَةٍ ما.

عاد أخي إلى طوكيو في يوم خريفيّ رائع. كانت المدينة كأنّها مغلّفةً بطبقةٍ رقيقة من الزّجاج الشفّاف.

انتظرته على أحد مقاعد ردهة الانتظار عند بهو المدخل، حيث لم يبقَ أحدٌ عمليًّا لأنّ معاينات فترة ما قبل الظهر كانت قد انتهت كلّها. أشكالٌ وأنواعٌ من الناس كانت تمرّ بقربي. لمحتُ، برغمِ سهوي، قدمي ممرّضة

تدفعُ عربةً محمّلة بالأغطية نحو المصبغة، وصدر موظّفة إداريّة مسترسلةً في الكلام وهي واقفةً، حاملةً وعاءً بين يديها، وأصابع امرأة شابّة من عاملات الاستقبال وهي تقلّب صفحات الدليل الداخلي للمستشفى. كلّ تلك المشاهد كانت مألوفةً في نظري. لاحظ وجودي أحد الباحثين المساعدين في مختبر الأمراض فسألني ماذا أفعل هناك، ولأنّني لم أكن راغبةً في الاسترسال بشرحٍ طويل اكتفيتُ بابتسامةٍ فاترةٍ بمثابة جواب.

كان الباب الرئيسي الذي يُفتَحُ آليًّا يُسرّبُ هبّاتٍ من الهواء الخريفيّ المنعش. كنت أرفع رأسي باستمرار بحثًا عن أخي. لكنّه تأخّر. وكنت لا أكفّ عن استعادة مسار الطريق، في ذهني، من رصيف مترو الشينكانسن وصولاً إلى المستشفى الجامعي، وعيناي لا تفارقان عقربي ساعتي. إذ انتابني شعورٌ بأنّ الوقت قد حان وبأنّه قد يصل في أيّ لحظة.

كنت قد سلّمتُ رئيسي في العمل، وهو بروفسور في جراحة الجهاز الهضمي، نتائج التحاليل المخبريّة التي أجريت في مستشفى المدينة الصغيرة على ساحل بحر الداخل، التي كانت قد حُوِّلت إلى البروفسور الاختصاصيّ

twitter @baghdad_library

بأمراض الدم، ثمّ إلى س.، الطبيب الذي سيتولّى علاجه. وفي الأثناء جرى تعيين مواعيد لتحاليل إضافيّة سوف تُجرى له وتجهيز غرفة خاصّة به في الطبقة الخامسة عشرة من الجناح الغربي. لم يكن بوسعي إلاّ أن أقفَ مكتوفة الأيدي فيما تأخذ كلّ تلك الإجراءات الإداريّة مجراها. إذ كانت الاستعدادات لاستقبالِ مرضِ أخي تجري على أفضل نحوٍ ربّما.

كانت المناداة على المرضى تتمّ، على نحوٍ متصل، عبر مكبّرات الصوت الموجودة في قسم المحاسبة وفي الصيدليّة. كانت تُذاعُ الكِنية أولاً بصوت متصاعد النبرة قبل أن يُذاع الاسم بأكمله مرّة ثانية. وإذا لم يتقدّم الشخص المعنيّ للتعريف عن نفسه في غضونِ مهلة قصيرة لا تتجاوز عشرات الثواني، فإنّ اسمه يُذاع مجدّدًا بالنبرة نفسها. وتيرة النداءات لا تتبدّل، مثل إيقاع الموج. بعض الأسماء كان جميلاً، وبعضها رقيقًا، وبعضها الآخر قاسيًا أو متواضعًا. أسماء من كلّ صِنف. فحاولت الاهتداء إلى المرض الذي يوحي به كلّ منها. كنتُ أمنح كلّ اسمٍ مرضًا يليق به تمامًا. وفكّرتُ أنّ كلّ اسم منها يعود إلى مَريض.

آخر مرّة شاهدت فيها أخي، كانت خلال الصيف

المنصرم، يوم الذكرى السنويّة الأولى لوفاة والدتنا. ذكرى متواضعة. في معبد متواضعٍ وسط غابةِ موساشينو، وفي قلبِ الدوّامة المتمادية لإنشادِ زيزان الحصاد. كنّا ثلاثتنا، أخي وزوجي وأنا، جالسين متربّعين، معزولين في قلبِ تلك الدوّامة، منصتين إلى تلاوات السوترا لساعاتٍ طويلة. ثمّ أكلنا من طعام المعبد النباتيّ وقد صُمّت آذاننا من صرير الزيزان. بعد ذلك غادر أخي مباشرةً قاصدًا جامعته. لذلك كان ينتابني شعورٌ بأنّني لم أتحدّث إليه حقًّا منذ سنوات طويلة. لا بل كنت أجدني عاجزة عن تذكّر مشهدٍ واحد كنّا فيه سويًّا نتبادل أطراف الحديث برويّة منذ أن بلغنا سنّ الرشد.

خَلْفَ مكتب الاستقبال الذي على هيئة U حيث شبّاك النزلاء الجدد، وشبّاك المرضى المعتادين، وحيث المحاسبة والصيدليّة، كانت خيالات العاملين بمآزرهم البيضِ في انهماك وحركة متواصلين. إلى يسار مكتب الاستقبال، تتراءى بوضوحٍ تامّ، من خلال الواجهة الزجاجيّة الكبيرة المرتفعة من الأرضيّة حتّى السقف، حديقةٌ مصونة بعناية فائقة. كان الرجل الذي يُعنى بها منصرفًا إلى قذفِ فُتات الخبز للبطّ العائم في حوض المياه. نهضتُ على مهلٍ داسّةً يديّ في جيبي قميصي الفضفاض. ممحاةٌ وشَكْلاتٌ وورقة مدعوكة أصدرت

twitter @baghdad_library

حفيفًا مكتومًا. ومشيتُ بين المقاعد حتّى طرف ردهة الانتظار وأسندتُ كتفي اليمنى إلى الواجهة الزجاجيّة. كان فاترًا إشراقُ الحديقة الذي كَسَا نصفَ وجهي وشعرتُ بالنعاس يُداعب أجفاني. البطّات كانت تنقد فتات الخبز الطافي على سطح الماء. لم يتبقّ منه في يد الرجل سوى كسرة. قذفَ بها داخلَ فمه وراح يلوكها بقوّة. في تلك اللّحظة لامست أصابع كتفي.

ـ إني سعيد لرؤيتك.

عندما استدرت نحو الصوت، كان واقفًا هناك، كأنّما خِلْت وجوده جزءًا من المكان. كان صوته متمايزًا عن الضوضاء المحيطة. نبراته رقيقة حتّى أنّي لهنيهةٍ حَسِبْتُ أنّ غريبًا ما يخاطبني.

ـ أوه، وأنا أيضًا. تبدو بأحسن حال.

بعد إجابتي شعرتُ بأنّي تلفّظت للتوّ بحماقة. رحتُ أتفحصّه متأنيةً بعينيّ من قمّة رأسه إلى مختلف مواضع جسمه، شعره، خدّيه، شحمتي أذنيه، أظافره، كعبيه. ثمّ حاولت أن أستذكر ما كنتُ أشعر به عندما نكون سويًّا.

ـ آسفٌ لهذه المشقّة، خاطبني قائلاً واضعًا حقيبة سفره الصغيرة عند قدميه.

تساءلت إذا كان قد أبدى لي في السابق مثل هذا القدرِ من الامتنان.

ـ لا تقلق. لقد طلبت من ربّ عملي أن يتوسّط لدى البروفسور الاختصاصي في أمراض الدم. كما انتقينا الطبيب الذي سيتابع حالتك. لم أتحدّث إليه شخصيًّا بَعدُ، لكنّ صيته ممتاز، وهو أهلٌ للثقة.

ـ في أيّ قسم تعملين؟

ـ في قسم جراحة الجهاز الهضمي. وبما أنّي أداوم بضع ساعات كسكرتيرة، لديّ متّسع من الوقت؛ وأعتقد أنّني سأتمكّن من الاهتمام بشؤونك على أهون وجه.

كنت أريده أن يفهم أن لا داعيَ لشعوره بالامتنان حيال ما أفعل.

البستاني الذي فرغ من لوكِ كسرة الخبز كان قد شرع في ريّ النباتات المزروعة في أصصٍ صُفَّت على حواف بركة المياه. وكنّا نسمع صوت انبجاس الماء مكتومًا عبر الواجهة.

ـ تراودني مشاعر غريبة، حقًّا، قال أخي متنهّدًا بعض الشيء، مُغضيًا. هل يشعر الجميع بمثل شعوري قبيل دخولهم المستشفى؟

ـ هل أنتَ خائف؟ سألته ساعيةً لأن تتلاقى نظرتانا.

ـ لا، ليس الخوف. لكنّني أعتقد أنّها بداية أمرٍ فريدٍ من نوعه. أشعر باختلاجات، كما ترين، وأشعر بضيق.

twitter @baghdad_library

فهززتُ رأسي.

ـ ثمّ لَستُ أنا من أراد المجيء إلى هنا. إنّه جسمي وقد أخلَّ بي. لذا أجدني مشوّشًا بعض الشيء.

أدار وجهه صوبَ الحديقة ممرّرًا أصابعه الرشيقة الليّنة خلَلَ شعره. كانت النباتات الكثيفة المرويّة تلمع حتّى حبيبات طلعها. راح يغمز بعينيه على مهل. كلّ هدبٍ من أهدابه يلتقط بريق الطّلع. وبدا لي بمثل نضارة الثمرة التي قُطِفَت للتوّ، ولا تزال مكسوّة بالندى.

فتّشتُ عن عباراتٍ من شأنها أن تقوّي عزيمته. غير أنّ الكلمات أثقلت على لساني فلزِمتُ الصمت.

بدا أخي كأنّه يحلّل مشاعره، يعمّقها، يزنها، لكي يُضفي عليها تماسكًا ما.

شاطئ من السكينة تمادى بيننا.

ـ لكن أعتقد بأنّني سأتغلّب على المحنة، قال فجأة بنبرة هامسة. عندما تطلّق أبوانا، ثمّ عندما توفيت أمّي، ألمّت بي حالة من الاضطراب، ولكن، في النهاية، تغلّبتُ عليها. وأنتِ لم تكوني بعيدة، أردف قائلاً، مخاطبًا طيفي المنعكس على الواجهة الزجاجيّة.

ـ بالتأكيد، كلّ شيء سيكون على خير ما يرام، سوف ترى. المهمّ أن تعتاد الأمر. كلّ المسألة هي أنّك لم تعتد

الأمر بعد. لم تعتد مثل هذه الأمور كالمرض أو المستشفى. يجب أن تعتادَ أمورًا كثيرة، ولكن تدريجيًّا.

ـ أجل.

وهزّ رأسه مثل طفل.

في تلك اللّحظة، وللمرّة الأولى انتابني شعورٌ بالشفقة وراح ينمو متعاظمًا في داخلي. في البداية وَدِدتُ لو أَلمس موضعًا من جسمه. تقدّمت خطوةً نحوه، ووضعتُ يدي على ظهره المستقيم. وحاولت أن أتخيّل بشرة وعروق وعضلات ذلك الظهر، فلا بدّ أن تكون نضرة وزاخرة بالحيوية.

قبل انتقاله إلى غرفته، كان علينا أن نوقّع على إبراء ذمّة نتعهّد بموجبه ألاّ نلجأ إلى مقاضاة المستشفى أو الأطباء في حال تعرّض المريض إلى طارئ، وأن نوقّع إقرارًا يُفيد بأنّه في حال التعرّض إلى سرقة داخل الغرفة نتحمّل نحن المسؤوليّة كاملة، ثمّ كان علينا الاستماع إلى شروح الممرّضة بشأن القواعد التي تنظّم الحياة في المستشفى عمومًا. وقد لَزمنا الصمت طوال تلك الفترة.

اصطُحِبنا أخيرًا إلى غرفته، ولكن كان عليه النزول

twitter @baghdad_library

مجدّدًا لإجراء بعض الفحوص. فقرّرت أن أنتظر عودته. كلّ غرف الجناح الغربي في الطبقة الخامسة عشرة هي غرف فرديّة، ولدى وصول أخي، كانت جميعها مشغولة.

في وسط الغرفة وُضِع السرير مغطّى بملاءات مكويّة للتوّ. كان قصيرًا، سميكَ الفِراش، أشبه بحيوانٍ سمينٍ أبيض، رابضٍ هناك. بياضه الناصع كان نافرًا في أجواء الغرفة التي كُسيت بورق جدران ضاربٍ إلى الصفرة الباهتة. وكان كلّ شيء حول السرير أبيض ناصعًا. فخلافًا لأيّ غرفة عادية أو لأيّ غرفة فندق، بدت لي الأشياء جميعها ذات معنى أعمق ممّا أحسب. وشعرت بأنّ غرفة المريض هذه تبسطُ الأرجاء حول سريرها.

إلى يسار المدخل كابينة مستقلّة وإلى يمينه سخّان على الغاز ومجلى. قرب النافذة أريكة صغيرة مكسوّة بنسيج من الكتّان، وطاولة من الخشب مستديرة بقرب السرير، وفي ركنٍ من الحجرة ثلاّجة أشبه بخزنة. جميع هذه العناصر كانت متقشّفةً، بارزة في أجواء الغرفة، ولكنّها لا توحي بالبرودة. ربّما لأنّها لم تكن جديدة، وتُستَعْمَلُ برويّة ورفق وتحفظ في مظهرها أثرَ صيانة منتظمة.

جلست على طرف السرير، ووضعت حقيبة أخي على الوسادة. على الغطاء المشدود فوق السرير، تشكّلت ثنيّاتٌ كأنّها غضون حفرتها الريح.

حسبتُ أنّ النهار سيكون طويلاً. وسيكون على أخي أن يضع لوازم الحلاقة والاستحمام على الرفّ في الكابينة، وأن يرتدي بيجامته، ويفرد غطاءه. أمّا أنا فسأعود، طبعًا، إلى منزلي، وسأحكي لزوجي ما جرى خلال النهار وأطلب منه أن يساندني في الأيّام المقبلة. بدا كلّ ذلك في نظري مُضجرًا إلى أقصى الحدود.

كانت الشمس شرعت في انحدارِها البطيء غاربةً. تحت النافذة تترامى هضبةٌ في انحدارٍ خفيف حيث تتشابك أضلعُ عماراتٍ في مجمّع للمساكن البلديّة. وأبعد منها يتراءى المبنى الرئيسي للجامعة محاطًا بحزامٍ من أشجار الجينكغو. كان السكون مخيّمًا.

طال انتظاري، فنزعتُ حذائي واستلقيت على السرير. دفنتُ وجهي في الملاءات، وتمطّيتُ ما استطعتُ. فإذا برفّاص الفراش يطلقُ صريرًا مسموعًا.

كان نقاء غرفة المريض تلك يجعلني مطمئنّة. الكنبة والنافذة، الثلاّجة والجدران، الطاولة والسرير. فكلّ ما فيها سهل مستقيمٌ أو عموديّ بزاوية قائمة. على السخّان لا أثر لفضلات لحم محترق أو لقشور خُضار أو حبيبات فلفل، لا شيء البتّة ممّا قد يذكّر المرء بالمطبخ. فقط بضع مشحات لامعة هي الأثر المتبقّي عليه من ملمس قطعة الإسفنج. حتّى ذلك اليوم لم يكن قد أتيح لي أن أرى مثل تلك النظافة الوديعة.

twitter @baghdad_library

شبكتُ يديّ تحت رأسي قبل أن أغمض عينيّ برفق. كان جسدي خفيفًا، كأنّ السرير يضمّني بحنوّ بين ذراعيه. بدا لي أنّني قادرة على التفكير في أمور شتّى. طقطقةُ أنابيب مُرتطمة وخَفْقُ خُفّين لممرّضةٍ عبرا وراء الباب.

كنت أستذكر شفتي أمّي. ولعلّ السبب الذي يحدو بي، على الدوام، إلى استذكار شفتيها أوّلاً حين أفكّر فيها، هو مرضها. كان الوضع مُحرِجًا، وكثيرون ممّن كانوا حولها شعروا بالأذيّة. كانت مصابة بمرضٍ عقليّ.

في البداية فقدت كلّ طاقتها. فما عادت قادرة على تصنيف الفواتير أو الرسائل أو الحلوى التي تُقدّم لها وترتيبها كما ينبغي. وعلى غرار مشاعرها المشوّشة صار المنزل غارقًا في فوضاه. خيارة متعفّنة مهملة فوق خزانة الأحذية، وبعض من شعرها يطفو في مياه أكواريوم الأسماك الاستوائيّة. وبمضيّ بضعة شهور أصبحت عصبيّة المزاج على نحوٍ لافت، متشبّثة بمن تصادفه من أفراد الأسرة أو الأصدقاء أو حتّى الغرباء، لكي تسترسل في التحدّث إليه طيلة النهار. كان كلامها متهدّجًا كأنّها تخشى أن تجد نفسها عاجزة عن التنفّس

twitter @baghdad_library

إذا ما توقّفت لحظة عن الكلام، وهو أمرٌ شاقّ على من تصطفيه جليسًا. وليس مستهجنًا، على هذه الحال، أن نجد جواربَ مُهملةً على الطاولة في حجرة الطعام، أو برتقالة شبه متهرّئة في جرن الغسّالة.

ما كنتُ أرى سوى شفتيها عندما تسترسل في الكلام بلا انقطاع. شفتاها المطليّتان بحمرةٍ متشقّقة، الدَّسِمتان، الرطبتان ببياضهما الوردي الباهت. لهذا السبب أجدني اليوم قادرة على استذكار تدويرهما وفِلَقهما بدقّة. كانتا أشبه بيَرَقانَتَيْن متحرّكتين وسطَ كنيفٍ مقزّز.

كان زوجها هو أكثر من يخشاها. ولذلك طلّقها. فمن الصعب جدًّا أن تحبّ شخصًا مضطرب العقل. كنّا أنا وأخي متعاطفين معه بصدق. ولكن سرعان ما اقتصرت صلتنا به على ما يصلنا منه من معونة ماليّة.

في النهاية ماتت في حادثة عنف تشبهها على نحوٍ ما. ذهبت ضحيّة سطوٍ على مصرف كانت دخلته بمحض المصادفة، فأصيبت بطلق ناريّ. في أيّامها الأخيرة كانت شديدة الاضطراب، مُستثارة على الدوام. ويبدو أنّها لم تتردّد في الاقتراب من الشقيّ المسلّح ببندقيّة، الواقف على الكونتوار. واسترسلت في الكلامِ على حماقة القيام بسطو

مسلّح وأنانيّة الأشقياء وألم العائلات. وشهدت إحدى العاملات في المصرف بأنّ فحوى كلامها كان متّزنًا جدًّا. فالظاهر أنّ وسط المعمعة التي سادت المكان بين أنين وضوضاء واضطراب، وحده صوتها تردّد عاليًا كصفّارة إنذار. لا بدّ أنّها امتلكت الجرأة الكافية لكي تسعى إلى إقناع الشقيّ، عبر تنويمه مغنطيسيًّا بقوّة عينيها الشاخصتين وحركة شفتيها المتواصلة. وما كان لأحد أن يحول دون التبعات المترتّبة على إحساسها المرضيّ بالظُلم.

كنت أستعيد، ساهيةً، هذه الذكريات كلّها، وقد أدركت، فيما بعد، أنّ تجربة العيش مع أمّي، المضطربة غير النظيفة، هي التي حدت بي إلى المبالغة في استحسان النظافة المثاليّة لغرفة المريض تلك.

كنتُ أفقد أفراد أسرتي، الواحد تلو الآخر، على التوالي. فهل سأفقد أخي هذه المرّة؟ فجأةً شعرتُ بأنّ القلق يستبدّ بي. قلقٌ شبيهٌ بذاك الذي يولّده الإحساس بأنّ رأسك قد حُشِرَ داخل جراب أسود. وشعرت بدوارٍ خفيف. كانت الغرفة مُقيمة على سكونها. تنفّستُ مرارًا ملء رئتيّ لكي أتمتّع بذلك النقاء ما استطعت.

twitter @baghdad_library

انقضت أيّام عديدة بطرفة عين. كان أخي قد تَعَوّد الإقامةَ في غرفته. أمّا أنا فسرعان ما اعتدت حياتي المزدوجة، في بيتي وفي الغرفة. في غرفة مكتب البروفسور رئيس قسم جراحة الجهاز الهضمي، كنت أنصرف، على جاري العادة، إلى نسخِ النصوص المرافقة لشرائح الديابوزيتيف المعدّة لندوةٍ متخصّصة، وإلى طبع ملخّص لأطروحة دكتوراه على الآلة الكاتبة، واستقبال الزائرين من الجسم الطبّي.

كان البروفسور قلقًا بشأن حالة أخي الصحيّة. وأخبرني أنّ أخته الصغيرة توفيت، أثناء الحرب، جرّاء سوء التغذية. وقال لي إنّ أشقى لحظات حياته كانت اللّحظة التي شرب فيها خلسةً الحليبَ المخصّص لأخته الصغيرة. وبدا أنّه لم ينسَ إلى اليوم ضربات قلبه المتسارعة لدى اكتشافه الحليب وتردّده قبل أن يغمس إصبعه فيه ليتذوّقه، وإحساسه بالسائل المتدفّق في حلقه عندما عجز عن مقاومة رغبته الشديدة في شربه. لم أدرِ بما أجيبه، إذ نادرًا ما كان يحدّثني عن حياته الخاصّة.

ـ عندما يموت شخص ما، يترتّب على الأحياء أن يعيشوا تحت وطأة المشاعر المختلفة من الندم والحسرة حياله، خَلص إلى القول بنبرةٍ واعِظةٍ قبل أن يغادر حاملاً طباشيره وأوراقه لإلقاء محاضرة أمام طلاّبه.

بعد هنيهات كنت أعالج شريط الحبر في الآلة الكاتبة عندما رنّ جرس الهاتف. رفعت السمّاعة بعد أن ألقيت نظرة على الساعة للتثبّت من الوقت المتبقّي قبل نهاية المحاضرة. لكنّ المتكلّم كان س. والمخابرة لي أنا.

قال لي تباعًا إنّه ينبغي أن يشرح لي الحالة المرضيّة التي يعاني منها أخي، وإنّ لديه الآن بعض الوقت، وإنّه يتساءل عمّا إذا كان ثمّة مكان يمكن أن نلتقي فيه لكي نتحدّث بهدوء. متلعثمًا مرّتين في كلامه، اقترحت عليه أن نلتقي في قاعة المحاضرات ٢ التي لا بدّ أن تكون شاغرة في مثل هذا الوقت، فأجابني : «أوه، حسنًا»، متلعثمًا مرّة أخرى. دخل س. دافعًا الباب بوركه، حاملاً بكلّ يدٍ كوبًا كرتونيًّا من أكواب الموزّع الآلي. فهرعت إلى المدخل وحيّيته ممسكةً بالباب.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أراه فيها عن كثب. طويل القامة، حتّى مئزره الأبيض الفضفاض لا يُخفي عضلات صدره. كان جسمه آية في التناسق يليقُ ببطلِ سباحة. وفكّرت في أنّ جسمه، إذا تبلّل، لا بدّ أن يكون رائعًا. دائمًا عندما أرى رجلاً أتخيّله مبلّل العضلات. أتخيّل ما لا يُحصى من قطرات الماء الرقراق سائلةً على

twitter @baghdad_library

كتفيه المسمرّتين الصلبتين، وعلى جانبي صدره وفخذيه. لا شكّ أنّ ذلك يعود إلى فتى غرامي الأوّل الذي كان عضوًا في فريق السباحة. كان، بالإجمال، محبّبًا إلى نفسي ذلك الصنف من الرجال ذوي الأجساد الموحية، تلقائيًّا، بصورة قطرات الماء تلك. وبهذا المعنى كان جسم س. لا تشوبه شائبة.

جلسنا متقابلين على مقاعد قاعة المحاضرات تلك، المجهّزة بألواحٍ خاصّة لتدوين الملاحظات.

ـ لقد ارتأيتُ أن نحتسي بعض الشاي أثناء حديثنا.

ناولني كوبًا. كانت أصابعه رشيقةً كأنّها مرسومة بقلمِ رصاص. وراحِ انطباعي الأوّل، الذي كوّنته عنه من خلالَ مصادفته أحيانًا في أروقة المستشفى، يزداد وضوحًا انطلاقًا من تفاصيل مماثلة.

ـ أنتِ... أنتِ لا تشبهين أخاك كثيرًا، بادر إلى القول بعد أن رَشَفَ قليلاً من الشاي، وهو يرمقني بنظراتٍ مستكينة مسندًا بساعديه إلى الطاولة. كان حديثه مباشرًا وصريحًا، فأشعرني ببعض التوتّر.

ـ هذا صحيح. طباعنا مختلفة أيضًا. شأن الكتب التي نقرأها أو شأن أفكارنا السياسيّة.

أغضيتُ، محدّقةً بكوب الشاي بين يديّ. كان السائل الضارب إلى الخضرة، الفاقد سخونته تدريجًا، قد بدأ يترسّب. فسكبته في جوف حلقي. كان طعمه مُريعًا. لا بل خالطته نكهة خفيفة أشبه برائحة البصل.

ـ إنّه شاب مهذّب، هادئ، يتحكّم بانفعالاته وردود فعله. وأنا واثق من أنّ علاجَه سيتمّ على خير ما يرام.

وضع ساقًا فوق ساق، ولمحتُ بين طرفي مئزره استدارة فخذيه تحت سرواله الأبيض. وتخيّلتُ العضلات المشدودة المكسوّة بحبيبات الماء اللامعة.

ـ غير أنّه يواجه حالة ص. . . صعبة.

كان قد تلعثمَ بقوّة لدى نطقه بِـ صعبة، كأنّ الكلمة تتميّز بمعنى فريد.

ـ صعبة؟. . . غمغمتُ قائلة وأنا لا أحيد بناظريّ عن استدارة فخذيه.

كنتُ أشعر بأنّني انتقلت إلى مشهدٍ آخر، فريد. إذ انتابتني مشاعر مماثلة لتلك التي انتابتني ذات يوم، في

twitter @baghdad_library

حجرات الملابس في نادي السباحة، عندما ألصقَ الفتى الذي أحببته جسمه المبلّل، وهو يرتدي المايو، بجسميَ المكسوّ بمريلة المدرسة، أو عندما شاهدت شفتي أمّي المتهدلتين الشاحبتين في حجرة الموتى في أحد مراكز الشرطة. لم تمحُ السنوات الطويلة التي انقضت من ذاكرتي مثل هذه اللحظات الفريدة، كأنّها مشاهد مستعادة مؤلمة، وشاقّة. كانت نوافذ قاعة المحاضرات تطلّ، من مسافة بضع عشرات من السنتمترات، على حائط مدرسة مجاورة، فلا يسعني أن أشرد بعينيّ نحو خارجٍ ما، فاستسلمت بكلّ جوارحي لذلك المشهد الفريد.

ـ كم تبقّى له من الوقت؟

بالنسبة لي كان ذاك هو السؤال الأهمّ ولم يخطر ببالي سؤال آخر.

ـ لنقل إنّها مدّة تتراوح بين ثلاثة عشر وستّة عشر شهرًا.

ـ ثلاثة عشر...

لم أستوعب الجواب على الفور، استغرقني ذلك بعض الوقت. إذ لم يسبق لي، حتّى تلك اللّحظة، أن فكّرت مليًّا بما قد يعنيه مثل ذاك الأمر. ما الذي قد يُنجَز في مهلة الثلاثة عشر شهرًا؟ قد تكون مدّة كافية لتدريب طفل على الوقوف والمشي؛ ولتحوّل راسبٍ في صفّه إلى ناجحٍ؛ ولتحويل عاشق إلى رجل متزوّج. حاولت أن أطبّق هذا

الرقم على أكثر من مقياس. ولكن عندما أردت أن أتخيّل ماذا تعني ثلاثة عشر شهرًا في حياة أخي، لم أستطع، لأنّني شعرتُ بضيقٍ خانق، كأنّ قلبي استحال ثمرةً متهرّئة، مفلوقة القشرة، من شدّة النضوج.

من حولنا نحو عشرة مقاعد ذات ألواح صُفّت كيفما اتفق أمام واجهة زجاجيّة. أسفل هذه الواجهة ورقة من دفتر تطبيقات مهملة على الأرضيّة. طُبعَ عليها بالحبر الأزرق رسمُ جسم إنسان مع شروحٍ بكتابة أبجديّة. كنت أنتظر مبادرة س. إلى قول شيء ما.

نهض متكئًا بيديه الاثنتين إلى الطاولة، واقترب من اللّوح المتحرّك بقرب الجدار.

ـ لنفكّر أوّلاً في الحياة. هو وأنت وأنا والفريق بمجمله، سنبذل قصارى جهدنا.

كانت العبارة التي استخدمها للتوّ جميلةً بحيث عجزت عن النظر إليه مباشرة. أمّا هو فكان ينظر إليّ منذ البداية.

شرع في شرحِ المرض الذي ألمَّ بأخي مستخدمًا ثلاث

twitter @baghdad_library

طباشير بألوان مختلفة. شرح بالتفصيل كيف أنّ الخلايا الأصليّة التي تنتجها المادّة النخاعيّة في العَظْم تتكاثر على نحوٍ عشوائي، والأضرار التي يسبّبها انتشار هذه الخلايا الخبيثة في أنحاء الجسم، ووتيرة تنامي المرض بحسب استخدام العقاقير. كنت أشعر بأنّ كلامه يتناهى إلى مسامعي تباعًا. إذ يُرفِق المصطلحات الطبيّة بتفسيرٍ مُقتضبٍ من شأنه أن يعينني على الفهم، الأمر الذي استغرقه وقتًا واضْطُرَّه إلى كسرِ طبشورتين وإلى تأتآت لا تُحصى.

كلّما كان يحبس كلماته في فمه مبتلعًا أنفاسه، كانت تراودني الرغبة في مداعبة خدّيه بيديّ لَعَلّي بذلك أحلّ عقدة لسانه. ولمّا كانَ الأسى لا يفارقني مصحوبًا بضيق النفس، لبثتُ عاجزة عن فهم شروحه. كأنّ العبارات تتلاطم في السياق وتتشابك. لذا استسلمت لهدهدة النبرِ في كلماته التي تُحْبَسُ أحيانًا لشدّة تدافعها.

ـ ما من سؤال يُزعجني، حتّى لو كان تافهًا. فهل لديك ما يقلقك أو ما تودّين الاستفسار بشأنه؟ قالَ نافضًا غبار الطبشور عن يديه. ثمّ اتكأ برفقٍ إلى اللّوح منتظرًا ردّي.

ـ لك جزيل الشكر، بادرت إلى القول من دون تفكير، ولكن لا تقلق بشأني. قد أكون لا أجيد التعبير عن نفسي ولكن أعتقد بأنّني قادرة على تفهّم هذا الوضع، وأمّي

توفيت، بأيّة حال، قبل أن تبلغ نصف المعدّل الوسطي للحياة. هذا فضلاً عن موتها الغريب العجيب، لقد قتلت بطلق ناريّ. ثمّ أنّني، كما تعلم، حصّلتُ تجربةً لا بأس بها خلال عملي في قسم جراحات الجهاز الهضمي حيث شهدت من الأمراض ما لا يخطر ببال. لقد طبعت على آلتي الكاتبة أعدادًا لا تُحصى من تقارير التشخيص، مرفقة بشروح حول تاريخ المريض الصحّي، وملخّصات ورسومات بيانيّةً، وفي النهاية، علامة X على خانة الأعراض. كنت أضغط على مفتاح X وأنا أقول في سرّي إنّ الشخص المعنيّ قد مات هو أيضًا. لذلك أقول لك لا بأس. إنّي أعلم جيّدًا أنّ الموت ماثلٌ، أينما كان، في هذا العالم.

عندئذٍ حاولت أن أستدرك أنفاسي، مُدركةً بأنّني تكلّمتُ أكثر ممّا ينبغي.

هزّ س. رأسه مرارًا. وفي كلّ مرّة كانت تهتزّ أنابيب سمّاعته المطاطيّة المتدلية من جيب مئزره الأبيض.

ـ أحسب أنّي لن أسأل لِمَ ينبغي أن يكون أخي هو مَن يُصاب بالمرض. فلو فعلت لفَاقَ الأمر طاقتي واحتمالي.

ـ بأيّة حال، عليك بالصبر. يجب أن تكونا، أنت وأخوك، قادرين على التحلّي بأقصى درجات الصبر.

ـ أجل، قلتُ وأنا أحرّك بإصبعي بقايا الشاي في قعر

twitter @baghdad_library

الكوب الكرتوني. فيما قُرِعَ الجرس الذي يؤذِنُ بنهاية إحدى الحصص الدراسيّة عند طرف الجناح الجامعي.

ـ هل لَكَ أخوةٌ وأخوات؟ سألته على نحوٍ مباغت.

ـ لا، لا أخوة تربطني بهم قرابة الدم. ولكن، بمعنى آخر، لي الكثير منهم.

ابتعد عن الجدار، وعاد للجلوس على الكرسيّ قبالتي.

ـ بيتي كان م... ميتمًا.

ـ كان ميتمًا؟

بَدَت لي العبارة برونق عبارة مجهولة.

ـ أجل. غير أنّ هذا لا يعني أنّني يتيم، فأبوايَ كانا يشرفان على ميتم.

ـ يشرفان على ميتم؟

كنت أجدُ مشقّة في التآلفِ مع إيقاع الكلمة.

ـ أجل، ولهذا السبب ليس لي أخوة وأخوات يربطني بهم رابط الدم، ولكن لي الكثير منهم خارج صلة النسب هذه. من بينهم من لم يمكثوا معنا سوى يوم واحد لأنّهم وجدوا على الفور أسرًا تتبنّاهم، وآخرون ممّن وفدوا حديثًا

ولم آلف وجوههم بعد، ويغدون، بين ليلة وضحاها، أفرادًا من الأسرة.

ـ فهمت.

كنت أحاول أن أتخيّل قدر المستطاع آليّة العيش في هذا الميتم، حيث عدد الأخوة والأخوات قابل للزيادة والنقصان على نحوٍ مفاجئ.

ـ قد يسعك إذًا أن تقول لي ما هو الشعور عندما يفقد المرء أخًا؟ ما الذي يحلّ به بعد ذلك؟

ـ عندما يحظون بأسرةٍ جديدة، كانوا ببساطة يغادرون منزلنا، أقصد الميتم. يغادرونه خلسةً بينما الأولاد الآخرون يغسلون أسنانهم أو ينامون في فترة القيلولة.

ـ من دون وداع؟

ـ أجل. لا يودّعون أحدًا. لا أبي ولا أمّي ولا الأولاد الآخرين. لأنّهم كلّما سارعوا إلى نسيان الميتم كانت حياتهم الجديدة أفضل وأكثر سعادة. كان أبي يتلو صلاةً أخيرة، ودعاءً أخيرًا، وينتهي الأمر.

كان س. يواصل شروحه بنبرة محايدة كأنّه يقرأ تعليمات استخدام آلة كهربائيّة في كتّيب إرشادات.

twitter @baghdad_library

ـ إنّ فقدان أخٍ في نظري هو هذا في آخر الأمر. والفراقُ يقتصر على الشعور بالبهجة لأنّه وجد أسرةً جديدة، وعلى النسيان بأسرع وقتٍ ممكن.

ـ أيّ فراقٍ هذا الذي ينبغي أن أحياه مع أخي؟ وماذا ينبغي أن أفعل لأجله؟ فأنا أكاد أكون قلقةً على نفسي، بمقدار قلقي بشأن مرضه، وربّما بمقدارٍ أكبر. دائمًا أسأل في قرارة نفسي إذا كنت سأتحسّر عليه عندما سأستذكر حضوره فيما بعد، وإذا كنت سأشعر بمثل هذا الضيق الذي يُثقل على نَفَسي والذي لا شيء، إلاّ الصراخ ربّما، قد يزيحه عن صدري. إنّه لأمر مؤلم يجعلني ، في آخر المطاف، أكره نفسي لأنّني لا أفكّر إلاّ في نفسي، بينما أخي هو المريض.

كلّما أمعنتُ في محاولتي البائسة للتعبير عمّا أحسُّ به، شعرتُ بالقلقِ يتعاظم في داخلي.

ـ أعتقد أنّه من غير المجدي التفكير بهذا القدر من التجر. . . التجريد. فخلاصة التفكير المجرّد لا تكون إلاّ مجرّدة، أي غير فاعلة. خصوصًا أنّ الوضع الذي يعاني أخوك منه هو وضعٌ ملموس، وليس مجرّدًا.

أطلق مقعد س. صريرًا مكتومًا إذ جرّه جرًّا لكي يُتاح له

الجلوس قُبالتي تمامًا. وهكذا أصبح قريبًا منّي بحيث أشعر بتنفّسه وبحرارة جسمه.

ـ لهذا السبب يجب أن تفكّري مليًّا وبشكلٍ ملموس. مـ... مثلاً، إذا قال لك أخوك إنّ ظهره يؤلمه، بإمكانك أن تدلّكي ظهره، أليس كذلك؟

ـ أجل، طوال الأمسية إذا اقتضى الأمر.

ـ كما ربّما تطلّب منك أن تذكّريه بمواقيت دوائه، أن تستعيدي بصحبته ذكريات قديمة، أو أن تتحدّثي إلى الممرّضة، أليس كذلك؟ أنا واثقٌ من أنّ هناك ما لا يُحصى من الأمور الملموسة التي يمكنك القيام بها.

كنت أرمقه بنظرات لا تعلو عن مستوى صدره.

ـ إنّ كونك أخته البكر... لهو أمرٌ بالغ الأهـ... الأهميّة في مثل حالته.

عندما نطق بكلمة «أهميّة»، كدتُ أن أمدّ يدي لألمس خدّه. بدا خدّه رطبًا ودافئًا.

ـ أنتَ موهوب فعلاً في طمأنة الناس. وأنا مسرورة جدًّا لأنّك تقف إلى جانبي بهذا الأسلوب مع أنّنا لم نلتقِ من قبل.

twitter @baghdad_library

ـ مهما قلت، يبقى أنّني ترعرعت في ميتم. واليتيم يحتاج إلى من يُطمئنه على الدوام. لذلك أمتلك موهبة طمأنة الناس أكثر ممّا أمتلك موهبة شفائهم.

بدرت منه ابتسامة. وأنا رمقته بنظرات يشوبها الخوف والهشاشة، كأنّها نظرات يتيم.

منذ اللّحظة التي أُدخل فيها أخي المستشفى، صرفتُ معظم أوقاتي في غرفته. كنت أهرع، عند الخامسة مساءً، مغادرةً مكتب البروفسور، لأستقلّ المصعد إلى الطبقة الخامسة عشرة من الجناح الغربي. وفي عطلة نهاية الأسبوع كنت أقضي أوقاتي بصحبته منذ الصباح حتّى يحين موعد إطفاء الأنوار.

كنتُ أعشقُ غرفةَ المرضى تلك. إذ أشعرُ حين أكون فيها بِدَعَةِ المولود الجديد الذي تغمره مياه حمّامه الأوّل. ويغدو جسدي نقيًّا من الداخل، شفّافًا حتّى آخر تجويفٍ فيه.

وإذا كنت أعشق غرفة المرضى تلك بهذا القدر، فلأنّ لا محلَّ فيها للحياة. لا فضلات طعام، لا بقايا دهون، لا ستائر مُشبَعة بالغبار. وطبعًا لا خيارةً فاسدة، ولا برتقالة متعفّنة.

twitter @baghdad_library

مرّة كلّ يوم، في الموعد نفسه، تأتي امرأتان لتنظيف الغرفة فتقلبانها وما فيها رأسًا على عقب، ثمّ تعيدان ترتيبها. كانتا تدخلان وهما تدفعان عربةً مترجّحةً صُفَّت عليها، بترتيبٍ لا شائبة فيه، مكانس السجفِ وقطع الإسفنج ومساحيق التنظيف. ثمّ، بعد أن تتوجّها إلينا، أنا وأخي، بعبارتين أو ثلاث، تنصرف كلّ منهما إلى عملهما بصمت. فالترتيب المتّبع في عملهما متفقٌ عليه سلفًا، لا حاجة بهما إلى إضافةٍ من دون طائل. بينما تنصرف إحداهما إلى تنظيف جرن المرحاض، تعمد الأخرى إلى تبديل الملاءات ووجوه الوسائد قبل الانتقال إلى مسح الزجاج والثلاّجة وقوائم السرير ومقابض الأبواب، أي كلّ الأماكن التي ينبغي تنظيفها. كانتا تفرغان من عملهما في اللحظة نفسها، الأمر الذي يثير إعجابي في كلّ مرّة. بعد ذلك تعمد المرأة التي تولّت تنظيف الحمّام إلى كنسِ الأرضيّة مستخدمةً مكنسة كهربائيّة خاصّة بالعاملين في هذا المجال هي أشبه بوحشٍ معدنيّ رابض، متَتبّعةً بأمانة تخطيط البلاطات على الأرضيّة، فيما تستخدم المرأة الأخرى مكنسة السجفِ لكي تكسوها بطبقةٍ رقيقة من الشمعِ اللامع.

في تلك الأثناء، نلبث أنا وأخي، عاطِلَيْن، على الأريكة. نتنشّقُ ببراءة أريجَ حياةِ نهارٍ بأكملِه متلاشيًا بفعلِ قطعة الإسفنج والفوطة والمكنسة. كانت مشاهدتهما

منصرفتين إلى عملهما بمثابرةٍ وترتيبٍ تمنحنا بعض السكينة. وإذا بالغرفة، بعد مغادرتهما، مشعّةً كأفخر صنوف الشامبانيا.

قد تنقضي الأيّام، ولكن ليس من شأن هذه الغرفة أن تتغيّر. ومن شأن الملاءات والسخّان وخزف جرن المرحاض أن تبقى دائمًا على ما هي عليه من الأناقة. ولن يُصيبها لا تلفٌ ولا فساد ولا عفن. ومثل هذا كان يُشيعُ الطمأنينة في نفسي.

لكن، إلى جانب حبّي العميق لتلك الغرفة، كان المرض ينتشر في جسد أخي ويتعاظم في داخله. ففي مثل حالته صار الأكل معضلةً لا يُستهان بها. ولائحة الأطعمة التي ما زال جسمه قادرًا على تمثّلها، في تضاؤلٍ مستمرّ.

كنتُ أنتقي ثمراتٍ صغيرة الحجم من التفّاح الحامض، وبعد أن أقطّعها إلى ثماني قطعٍ على لوحٍ مقاوم للصدأ، كنت أجعلها شرائح رقيقة على شكلِ وريقات الجينكغو. فتبدو هشّةً وقابلة لأن تنكسر حالما أمسك بها برفق بين إبهامي وسبّابتي لكي أضع عليها طبقةً من الجبن المائع. وكنت أدعو في قرارة نفسي أن تكون الرهافة البيضاء لمذاق

twitter @baghdad_library

الجبن المائع ممزوجةً بنضارة التفّاح، خليطًا مريئًا لجسمِه العليل. وكان يحمل الشريحة ويرفعها بتؤدّة وأناة إلى فمه كأنّه يحمل حرزًا ثمينًا.

ـ أرجو المعذرة، كان يغمغم قائلاً وهو يغادر السرير بعد ربع ساعة، قبل أن يغلق باب الكابينة وراءه. حيث يتقيّأ بأناقةٍ وهدوء. فلا يتناهى إلى سمعي سوى جريان الماء خلف الباب.

ـ لم يقبلها جسمي، كان يقولُ وهو يأوي مجدّدًا إلى فراشه.

في تلك اللحظة كنت أشعر بضيقٍ خانق إذ تنهال عليّ كلّ أنواع الأحاسيس دفعة واحدة. الشفقة واليأس، وكلّ المشاعر التي لا تُحتَمل، تأتلفُ متضافرةً حتّى التشوّش.

على اللوح الذي لا يصدأ كانت قطع التفّاح المتبقيّة قد بدأت تتأكسد. وقطعة الجبن المتبقيّة تنتظر. وضعت كلّ شيء، التفاحة والقشور وقطعة الجبن وغلافها في كيس بلاستيكي أسود وأحكمت ربطه. وبعد التثبّت من أنّ الطعام الذي لم يقبله جسمه قد اختفى كلّه عن اللوح غير القابل للصدأ، حملت الكيس البلاستيكي إلى حجيرة تجميع النفايات عند طرف الممشى.

لم أكن لأطيق وجود أيّ أثرٍ «لبقايا عضويّة» في الغرفة، وأمقت تحوّلها، كالبرتقالة المتهرّئة في حوض الغسّالة أو الخيارة شبه العفنة على خزانة الأحذية، كما كان يحدث خلال الفترة التي قضيتها مع أمي. لذا كنت أسارع إلى جمع الفضلات في كيس بلاستيكي أسود وأهرع بها إلى حجيرة النفايات.

كان باب الحجيرة صفيقًا وثقيلاً. ومفصّلاته التي لم تُشحّم منذ بعض الوقت، تموء كمواء هرّ. أمّا الداخل فموبوءٌ برائحة غريبة. كنت كلّما دخلت إليها أحاول أن أعرف ما هي، ولكن عبثًا. مستوعبان بلاستيكيّان ضخمان، يتّسع كلّ منهما لأن يستلقي فيه ثلاثة أشخاص جنبًا إلى جنب، يُتيحان فرز النفايات، فواحد للنفايات القابلة للاشتعال، وآخر لغير القابلة للاشتعال. هذا الأخير مخصّص في الأغلب لدوارق العقاقير الفارغة والأنبولات ذات الأطراف المكسورة.

كنت أحمل الكيس البلاستيكي بيدٍ مشدودة القبضة وأرمي به باتجاه المستوعب المخصّص للنفايات القابلة للاشتعال. فيحدث سقوطه فيه صوت ارتطام مكتومًا، وأغادر الحجيرة بعد التثبّت من أنّه اختلط بالأكياس

twitter @baghdad_library

الأخرى. وإذ أحكم إغلاق بابه الثقيل المصحوب بمواء الهرّ، ينتابني شعورٌ بالارتياح كأنّني أفلحتُ في حلّ مشكلة عويصة.

كان جسمه لا يتقبّل شيئًا. لا الكستناء المسلوق المكسو بطبقة من العسل، ولا لبّ الليمون الهنديّ الملفوف بأوراق البقل، ولا الجمبري المتبّل بعصير الكيوي. كان أخي يدخل إلى كابينة المرحاض مُحرَجًا. ثمّ يعود إلى فراشه خلسةً مثل عصفور بلّله المطر. فأضع قشر الكستناء وأوراق البقل وهبر الجمبري في كيس أحمله، دونما إبطاء، إلى حجيرة النفايات في آخر الممشى.

فقدت شهيّة الطعام لمّا فقدها هو. حتّى لو أردت أن أتناول وجبةً كاملة في مطعم المستشفى أو سواه، كان يكفي أن تمثل صورته في ذهني، بعنقِه الضامر وهو يغادر سريره معتذرًا، أو ذلك الإحساس بالرطوبة واللزوجة التي يُثيرها فيّ ربط الكيس البلاستيكي الأسود، لكي تضطرب أمعائي وأفقد شهوة الطعام.

كنت أشعر بأنّه كلّما تقيّأ شفّ بياض بشرته وازداد شحوبًا؛ إنّ كلّ الروائح زالت عن جسمه تدريجًا. كأنّه

يمتزج بنقاء غرفته.

المستغرب حقًّا، أنّ العنبَ، وحده، كان يلقى قبولاً لديه. وخاصّةً عنب الكولمان. لم يخطر ببالنا من قبل أنّ العنب قد يشكّل غذاءً خاصًّا. ولا أدري ما الذي قد يميّزه من حيث محتواه الغذائي عن التفّاح والجبن؛ ومع ذلك كنت أذهب كلّ يوم لشراءِ بعض العنب.

لمّا كان مخزن الفاكهة الوحيد في المستشفى لا يقتني، إجمالاً، إلاّ أنواع العنب المجفّف، كنت أقصد الجادة المفضية إلى المباني الجامعيّة. وعندما لا أعثر على الكولمان الطازج هناك، أستقلّ المترو قاصدةً أحد مخازن الفاكهة المتخصّصين في حيّ راق. وإذ ألمح العناقيد المغلّفة بالسيلوفان، مرصوفة كالزينة على الأرفف، أشعر مجدّدًا بالانتعاش كأنّني التقيت، على حين غرّة، أصدقاء صباي. فأنكبّ على تفحّصها، لونها، لمعانها، واصطفاف حبّاتها قبل أن أنتقي أفضلها. ثمّ أعود إلى الغرفة حاضنةً عناقيدي الثمينة بين ذراعيّ.

بات العثور على عناقيد العنب أولى مهامي وأوفرها جزاء. وكنت أسأل نفسي أحيانًا ما الذي قد أفعله للحصول عليها بعد انقضاء موسمها، أي حين يزداد

twitter @baghdad_library

الطقس برودة. ولمجرّد التفكير في هذا الاحتمال كنت أفقد توازني وأتخبّط كأنّني قُذِفتُ فجأةً في مياهٍ عميقة.

ـ نومًا هنيئًا، أقولُ قبيلَ مغادرتي الغرفة، وأنا أشعر بأنّني أنهيت يومي. لذلك كان لديّ انطباع بأنّ الوقت المتبقّي لي بعد عودتي إلى المنزل هو وقتٌ زائد.

كان زوجي أستاذًا مساعدًا في كليّة العلوم، وغالبًا ما يعود إلى المنزل في ساعة متأخّرة جدًّا. وعلى الرّغم من كونه متفرّغًا منذ لقائنا الأوّل، أي ما يزيد على التسعة أعوام، لإجراء أبحاث في مجال الوراثة، فقد أقمت على جهلي بعناوين ومعنى ونتيجة أبحاثه. وإذ أردت أن أفكّر فعلاً في الانطباع الذي يخلّفه زوجي في قرارة نفسي، لقلتُ إنّه تأمّل في موضوعة الغياب وتصريفها. غيابه وصلته بي، ومعنى غيابه، واللّحظة التي قد ينتهي فيها غيابه. كنت أحلّل غيابه في أوجهه المختلفة. فما أدلّ من ذلك على أنّ زوجي كان، في جوهر الأمر، وعلى الدوامِ، غائبًا.

لطالما ألفيتُ الشقّة معتمة لدى عودتي. فأمدّ يدي متلمّسةً زرَّ الإضاءة. وإذ تسطع الإنارة مصحوبةً بتكّة الفصال، يَمْثُلُ حوض المطبخ أمام ناظريّ. لأنّه المكان الذي أنفر منه عادةً ولا أستطيع إلاّ أن أتفقّده أوّلاً.

هناك أرى الأواني التي استخدمها زوجي عند الصباح، مكدّسةً على نحوٍ سخيفٍ. فنجان قهوة مقلوب فوق طبقٍ من زجاج مخصّص للفاكهة، وفوقهما طبقٌ مفلطح تبقيه المعجزة وحدها ثابتًا في موضعه. وبين الاثنين سكّين وشوكة طعام وملعقة صغيرة. كنت أقفُ لبعض الوقت أمام المجْلى كالمستغرق في تأمّل تحفة فنيّة.

كانت بقايا بيض «برشْت» عالقةً على شفة الصحن مثل دودة البطن. وأثر قهوة داكن على ضلعِ كرفس. أمّا اللبن الرائب فتخثّر حتّى بدا أشبه بتلافيف الدماغ. فيض من «الأجرام العضويّة» في المجْلى.

أشعر بغثيان مفاجئ وعنيف كأنّي ابتلعت قطعةً من أحمر الشفاه. ولكي أصرّف ما تجمّع أفتح صنبور المياه الساخنة على آخره، وبينما أنصرف إلى مقارعةِ «الأجرام العضويّة»، أحاول أن أصرفَ تفكيري عمّا أفعله حالمةً ببياض ملاءات الغرفة وبريق السخّان النظيف.

في الفترة نفسها تقريبًا التي أُدخل فيها أخي إلى المستشفى، كان زوجي قد باشر برنامجَ أبحاثٍ جديدًا على قدرٍ كبيرٍ من الأهميّة، فلا يتمكّن من العودة إلى المنزل قبل

twitter @baghdad_library

الثالثة فجرًا. كان ينتابني شعورٌ غريبٌ حقًّا وأنا أعدّ له وجبة طعام في مثل تلك الساعة المشوّشة من اللّيل، حيث يُكتَنَفُ ذهني بغمامة من النعاسِ، ويوهنُ الخَدَرُ أطرافي على نحوٍ مستغرب. أشعر بأنّ حواسي معطّلة ولا طاقة لي على تخيّل الأشياء فيقتصرُ جهدي على تكرار حركاتٍ آليّة متعاقبة. وراء النافذة تسود ظلمة عميقة وساكنة، وحدها الحجرة مضاءة بما يشبه الصخب في غمرة السكون. أصوات مَضْمَضته أو خفق باب الثلاجة الذي أغلقُه ترتطمُ بالنور فتنتثرُ في أرجاء الحجرة كلّها.

في تلك اللّيلة أعددتُ له اليخنة بلحم العجل مع سَلَطة البقول وقطعتين من الخبز. كلّما وضعت طبقًا أصدرت الطاولة طقطقةً مكتومة. ثمّ جلستُ، قُبالتَه، متهالكةً، مُرهقةً بحِملِ جسمي الذي أثقله النعاس.

ـ إذًا، كيف حاله؟ سألني وهو يجول بأنظاره على أطباق الطعام.

ـ أحسبُ أنّه ليس في أحسن حال.

في تلك الفترة، كنّا غالبًا ما نبدأ حديثنا على هذا النحو تقريبًا.

ـ ماذا تعنين بقولك ليس على أحسن حال؟

كان دائمًا يُطالبني بشروحٍ وافية وملموسة لتطوّر مرضه، وكنت دائمًا أجد مشقّة في إيجاد العبارات الملائمة. فملاحظاتي كلّها خالية من أيّ منطق. وعندما أكون بجانب أخي أشعر بأنّني عائمة في خضمّ من الأحاسيس والمشاعر الصِّرْف. ولا غضاضةَ، لأنّي أكونُ، أنا، البحر.

ـ يبدو أنّ فقر الدم إلى ازدياد. وشهوة الطعام إلى انخفاض. ناهيكَ عن الآثار الجانبيّة القاسية للعلاج.

كنت أحاول أن أنجو بنفسي من ذلك الخضمّ لكي أشرح له حقيقة المرض بما أمكنني من الكلام المنطقي.

ـ لا أرى ما يدعو إلى التفاؤل فيما تقولين.

twitter @baghdad_library

يُحرّك اليخنة قليلاً بطرف ملعقته.

ـ هذا صحيح، أنت محقّ فيما تقول.

كان حديثنا يبقى معلّقًا عند هذا الحدّ، فلا مجالَ لاستكماله أو المضيّ فيه.

كان السائل البني راكدًا في طبق اليخنة. ومن دون أن ينتبه من سهوِه تناول بعضًا منه بالملعقة اللامعة.

ـ أما زال طعامه مقتصرًا على العنب؟

ـ أجل، أخشى آخر الأمر أن تصطبغ جيناته باللون البنفسجي، أجبته من دون أن أحيدَ بعينيّ عن فمه. دسّ الملعقة بين شفتيه المتبسّمتين. كادت قطرة داكنة أن تسيل على فلقة شفته العموديّة عندما انبثق لسانه المطواع لامتصاصها كالرخويات ذوات الصمّامين. وبقيت ثنيات شفتيه مبلّلة باللعاب والدهن.

عندما كان أخي يأكل طعامًا آخر غير العنب، كان يستبدّ بي القلق خشيةَ ألاّ يتمكّن من هضمه فألبثُ محدّقةً بفمه أتلو الصلوات، وهكذا اعتدتُ التحديق مطوّلاً بحركات زوجي أثناء تناوله طعامه حتّى في ساعات متأخرة من

الليل. وكنتُ كلّما رأيتُ شخصًا منصرفًا إلى تناول طعامه، أثناء سيري في الشوارع أو خلال مشاهدتي التلفزيون، أستغرقُ في تأمّله كأنّني صادفتُ للتوّ ظاهرة طبيعيّة استثنائيّة كسطوع قوس القزح أو انهمار البَرَد. لذلك كان ثمّة على الدوام ما يدفعني إلى التدقيقِ بمتعلّقات الطعام جميعها، من الشكل إلى الطبق إلى الشفتين فاللسان والحلق.

لم يكن أحدٌ بمثلِ أناقة أخي في أكل العنب. حركة الشفتين، صوت اللعاب المتدفّق أو لون الأسنان وشكلها، دائمًا ثمّة ما ينفّرني لدى الآخرين.

أنامل أخي التي تصطبغ بلون بنفسجي باهت عند أكله العنب، كانت رقيقة مثل تحفة فنيّة نادرة. وما كنتُ أملّ النظرَ إلى سريان العصارة الوئيدِ تحت بشرته الشفّافة. يا للمنظرِ المذهل!

كان برد الليل قد تسلّل عبر فتحة كمّ منامتي لجهة الساعدِ الذي اتكأتُ عليه. فعندما نلزم الصمت يحلّ السكون فلا أسمع إلاّ أصواتَ أكلِه. في السكون الموجِعِ لشدّة برودته كان صوتُ تقطيع اللّحمة أو الخضار التي يهرسها يتردّد بوضوحٍ مخيِّب.

twitter @baghdad_library

ـ هل أستطيع أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع المقبل في غرفته؟

ـ طبعًا، بالتأكيد.

ـ وأنتَ ما هي خططك لنهاية الأسبوع؟

ـ أنا أعمل حاليًّا على اختبارٍ جديد. لذا سيتعيّن عليّ البقاء لبضع ساعات في الجامعة. سأتدبّر أموري، لا تقلقي بشأني.

ـ أنت تعذرني أليس كذلك؟

ـ طبعًا لا تشغلي بالك.

ـ ما أغرب حالنا كزوجين، ألا تشاطرني الرأي؟ نكاد لا نلتقي إلاّ عند الثالثة فجرًا.

ـ لا غرابة على الإطلاق. يكفي أن أعلم بأنّك ستكونين هنا عند الثالثة فجرًا.

غرزَ شوكته في الطماطم والحلفاء فاهتزّت ألياف الحلفاء كَزُبانى الفراشة.

. . . أسأل في سرّي لِمَ تبدي هذا القدر من اللطف. ولماذا، فيما تبدي هذا القدر من اللطف، يمكنك التهام

أيّ شيء بهذا القدر من البهجة. . .

كنت أرمقه كمن لا يصدّق عينيه، كما لو أنّ اللطف والأكل مسلكان متعارضان تمامًا.

فكّرتُ مليًّا، فقد خيّل إليّ أنّني شاهدتُ من قبل، في مكانٍ ما، لونَ يخنة اللّحم تلك. بطاطا، جزر، فطر، وبصل مغلي حتّى الذوبان. كنت أفكّر في ذلك السائل الفاتر الذي يحتويها، مثيرًا في روعي شتّى صنوف الذكريات.

سمعتُ ضجّةً رطبة صادرةً عن لسان وأسنان مكتَنَفة بالسائلِ، متناهيةً من جوفه. ضجّة جسمانيّة مُفرطة.

. . . هكذا تكون الذكرى التي تدعوك إلى التفكير في الجسد. قطعة لحم انتزعت ووُضِعَت أمام عينيّ. . .

غرفة العمليّات. كنت أراقب من الكابينة.

. . . هذا هو إذًا، إنّه اللّون نفسه، لون السائل ذاك، الغريب واللافت، الذي سال من الأحشاء في تلك اللحظة. . .

شعرت بالارتياح لأنّني وجدتُ ما كنت أبحث عنه.

twitter @baghdad_library

لم أشهد جراحةً من قبل، إلاّ مرّةً واحدة مع طلاب السنة السادسة، وبعد إلحاحٍ من ربّ عملي. كانت غرفة العمليّات في الطبقة التاسعة ويتعذّر الوصول إليها إلاّ بواسطة المصعد الخاصّ بها. عندما فُتِحَ باب هذا الأخير استشعرنا برودةً في الجوّ مختلفة عمّا يسودُ جناح المرضى أو الصيدليّة. في البداية لم نلحظ شيئًا في ردهة المدخل. لا أريكة ولا هاتف ولا أصص أزهار البَلْسَمينة. كانت فارغةً ليس فيها حتّى ما نتشبّث به لو أردنا. خافتة الإضاءة. زواياها غارقة في عتمة شبه تامّة. كانت نصف اللّمبات مطفأة، فتعيّن على الطلاب ورائي أن يدفعوني لكي أتابع سيري قُدُمًا.

بدت لي غرفة العمليات أضيق ممّا كنت أحسب، وأشدّ برودة، وكلّ شيء فيها، الجدران والسقف والأرضيّة بلون الإسمنت. لم ينتبه أحدٌ من المنهمكين في عملهم بداخلها إلى مجيئنا.

twitter @baghdad_library

عند سقف الحُجَيرة الصغيرة الملحقة بغرفة العمليّات فتحة تتّسع لمرور شخص نبلغها عبر سلّم صغير ضيّق وهاوٍ. وكان ينبغي تسلّقه لبلوغ الكابينة.

إذ وقفتُ على مسافة قريبة من مجموعة الطلاب، تصفّحتُ الأوراق الخاصّة بالعمليّة الجارية. وقد كُتِبَ فيها: كايكو كيمورا، ٣٤ عامًا، أنثى، استئصال المبيض.

أعدادٌ من الأيدي المكسوة بقفّازات اللاتكس الصفيقة تتحرّك منهمكةً فوق الجِسم. الأعضاء المُشبعة بالدماء تكاد أن تكون جميلة. ثمّ سُحِبَ المبيض من الأعماق. حمله أحد الجرّاحين بيده كأنّه يودّ التثبّت من وزنه. وكانت يده ترتعد قليلاً كأنّه خائف. كان الجانب الأعلى من العضو المستأصل منتفخًا ويوشك على الانفجار، كأنّه خلاصة الوجع الذي ألمَّ بالمرأة. ولم يلبث أن انشقّ عندما نخزه الجرّاح بسنان مبضع..

ـ كرة شوكولا، همس أحد الطلاب قائلاً.

«كرة شوكولا»، ردّدتُ في سرّي مُلتَفِتَةً نحوه.

. . . محبّبٌ هذا التعبير. . . قلتُ في سرّي. تعبيرٌ يذوبُ في الفم.

غير أنّ السائل الذي انبجس عن نصل المبضع، على الضدّ تمامًا من ذلك التعبير، كان مقيتَ اللون، يثير الغثيان. لون دماء متخثّرة. تندلقُ، لزجةً، على قفّازات اللاتكس ناشرةً رائحةَ وحرارة الجسم الذي كان يحتضنها حتّى تلك اللحظة. وبدا المبيض ذاويًا تمامًا ومجعّدًا.

. . . لون أصادفه للمرّة الأولى. . .

كنت أشتمُّ الرائحةَ ولا أحيد بناظري عنه. أبقي عينيّ محدّقتين فيه، وجهي لصق زجاج الكابينة، كأنّني أسعى للتلذّذ، أكثر فأكثر، بدفء ولزوجة ورائحة السائل الذي تدفّق من كرة الشوكولا.

أرمق زوجي بنظراتٍ مماثلة. كانت اليخنة تفترُ تدريجًا. وكلّما انفرجت شفتاه ألمح لسانه المصطبغ بلون الدم المتخثّر.

ـ قل لي، هل سمعتَ يومًا بالمرض الذي يُعرَف بكرة الشوكولا؟

twitter @baghdad_library

وكنتُ أخشى ممّا سأقوله.

ـ لا، أجاب على نحو مباغت.
فلا شيء يدعوه لأن يعرف هذا المرض.

ـ فما هو إذًا؟
دسّ قطعة خبزٍ في فمه غافلاً عن لون لسانه.

ـ لا تُشغل بالك...

واحتفظت، بسادية مضمرة، كلّ التفسيرات لنفسي.

ـ صديقة لي خضعت لجراحة جرّاء هذا المرض.

ـ حقًّا؟ من حولك كثير من المرضى.

بلا مبالاة غطّس ملعقته مجدّدًا في طبق اليخنة.

لَزِمتُ الصمت، لأنّني لو تابعت كلامي لاسترسلت في شروح مطوّلة حول أوجه التطابقِ بين لون اليخنة وقوامها وبين الإفرازات التي كانت تنعكس على زجاج الكابينة. وحدها شفتاه كانتا تواصلان حركتهما من دون توقّف.

في زاوية من حوض المطبخ وراءه تكدّست أكوام من القشور وبقايا القهوة وفتات الخبز. فرحتُ أنقّل نظري تباعًا بينه وبين ما تكدّس وراءه.

. . . لِمَ ينبغي أن تكون عمليّة الأكل على هذا القدر من البشاعة؟ . . . سألتُ في سرّي. هي أكثر الأنشطة الإنسانيّة اتسامًا بالجسمانيّة واللاوعي والشهوانيّة. فوراء كلّ مطبخ هناك مجلى متسخ.

كنتُ لأشعر بقدرٍ أكبر من الاطمئنان لو كان في موضعٍ ما من عتمة الجانب الآخر للنافذة، مقبض باب يُفضي إلى مستوعب قمامة بلا قعر. عندها كنت لأبتاع بضع عشرات من الأكياس البلاستيكيّة السود التي أسارعُ إلى ملئها بالأطعمة. ثمّ أحملها مدندنةً وأدير مقبض الباب، وأرمي بها إلى أبعدِ مكانٍ في كنفِ العتمة، مثل بصقة.

. . . لو أنّنا نستطيع التخلّص من أشياء الحياة كلّها في مستوعب قمامة، ونحيا بمثل خفّة لمعان البلّور! كنت أقول

twitter @baghdad_library

في سرّي، حانيةً ظهري. لطالما كَرِهتُ «الحياة».

عند عودتي من المدرسة كنت أجد أمّي هناك، وسط البيت، ساهيةَ العينين. من حولها الغسيل، تحدّق به شاردةً. كان من شأن ذلك أن يثير فيّ حالةً من الغضب الشديد، في كلّ مرّة، فأضربُ الأرضيّة بقدميّ حانقةً وأصيح بها قائلةً:

ـ إذا تُرك الغسيل على هذا النحو فلن يكون سوى كومة من الفضلات. يجب أن يُكوى ويُطوى، ويوضع في خزانة البياضات، وإلاّ ما الجدوى من غسله. مثل هذه الأمور ليست مستعصية على الفهم، كما أحسب!

مناشف الحمّام والجوارب والمناديل المهملة كيفما اتفق عند قدميّ أشبه بكومة من الفضلات.

ـ أجل، أعلم ذلك، لم أكفّ لحظة واحدة عن إقناع نفسي بأنّه يتعيّن عليّ أن أفعل.

كانت أمّي ترمقني بنظراتٍ كابية. إذ نضب معينُ

وجودها المشروخ.

واتخذت حياتنا معًا طابعًا مُستَهجنًا بسبب ذهنها المشوّش.

جلتُ بناظري على أرجاء الحديقة. أجماتٌ تزهر فيها بنفسجات الثالوث. طبقٌ مُهمَلٌ وسط الأزهار. وإذا لم يخطر ببالي على الفور إنّه غَرَضٌ بلا قيمة تُرك هناك سهوًا، فلأنّه كان طبقًا من الخزف الصيني الفاخر المصنوع في الخارج، وقد وُضعت عليه قطعتان من الكعك بالفراولة وقشدة الشانتيي. اقتربت من الأجمة ومن قِطْعَتي الكعك وأنا أعمِلُ مخيّلتي فيما أرى علّها تبتكر تفسيرًا لهذا المشهد المُستغرب.

ـ أمّي، أمّي! صحتُ بأعلى صوتي.

جلستُ القرفصاء وسط الأجمة مُقرّبةً وجهي من التراب. كان نصفا ثمرة الفراولة يزيّنان طبقتي القشدة وسط أريج الأرض والعشب وغبار الطَّلع. أمعنتُ النظر فيهما كأنّني أنظر من خلال مجهر. كان كعكًا عاديًّا مكسوًّا بطبقة كثيفة من القشدة. أشعّة الشمس تسطع من ورائي، شبه حارّة،

twitter @baghdad_library

عاكسةً أنوارها على القشدةِ كلّها. كانت الزينة المرسومة بجرابِ الحَلَوَنْجي قد بدأت بالذوبان. وعلى مقربةٍ وريقات بنفسجِ الثالوث تتمايل زاهيةً، ساخرةً، كأنّها انبثقت للتوّ من ألوانَ مصوّر. وكان الأريج السكَّريّ غير المألوف في ذلك المكان يُثير الغثيان في أحشائي.

أوّل ما لفت انتباهي هو الخطّ الأسود الذي كان يمتدّ على صفحة القشدة. ولمّا بدا واضحًا حسبتُ للوهلة الأولى إنّه ساكن. ولكنْ إثرَ طَرفَتين أو ثلاث من جفوني تبيّنتُ عددًا لا يُحصى من القوائم الدقيقة المتشابكة الهشّة. كانت النمال تنْغُلُ في أرتالٍ مصطفّةٍ، متعثّرةً، في البداية، بحوافّ الطبق، قبل أن تتابع زحفها مترنّحةً على الخزف اللامع الأملس. ولدى بلوغها قشدة الشانتيي تغوصُ في تلك الحلاوة الذائبة. بعضها يضلّ الطريقَ في خضمّ الدسم الصفيق الأبيض، متخبّطًا ساعيًا للخروج منه. ثمّ تتكاثر وتتكاثر ناغلةً متخبّطةً حتّى الغثيان.

لم أستطع إلاّ أن أتخيّل الشعور الذي يُخلّفُهُ طعم تلك القشدة في الفم. في الحقيقة لم تكن لديّ رغبة في تذوّقها، غير أنّ لساني هو الذي بادر إلى ذلك. كانت القشدة المشبعة بأشعّة الشمس فاترة مثل لساني. وانسابت فوقه،

شبه سائلة. ثمّ لم ألبث أن تعرّفتُ فيها إلى طعم سكّريّ نباتيّ ليس غريبًا عنّي. وفي الوقت نفسه راحتَ النمال تزحف على لساني ولثّتي. القوائمُ الدقيقةُ تدغدغ غشاءهما. وتنغل النمال كأنّ بيوضها تفرّخُ واحدةً تلو الأخرى داخل فمي.

ـ ماذا جرى؟ صحتُ بأعلى صوتي لكي أبصق من فمي النمال المشبعة بالقشدة.

ـ كنتُ مستغرقةً في تأمّل البنفسجات مُقرفصةً قربَ الأجمة عندما أعطتني الجارة هذه الحلوى. مدّت يدها بالطبق وقالت لي خُذي. لقد صنعته بيديّ، فتذوّقيه. عندها قلت لها شكرًا وأخذتُ الطبق. كان ثقيلاً جدًّا وبدا الكعك بالغ الهشاشة. لَبِثتُ هنيهاتٍ حائرةً في أمري لا أدري ماذا أفعل. كنتُ أعلم أنّه ينبغي لي أن أتّخذ قرارًا بهذا الشأن. ولكنّي لم أدرِ ماذا أفعل. كأنّ مفاصل جسمي يبست فجأةً فلا أقوى على الحراك. وكان عليّ أن أبذلَ طاقتي كلّها لكي أضع الطبقَ على الأرض، برفقٍ، حِرصًا على ما يحتويه.

... أجل. أعلم. أنتِ مريضة وثمّة منطق ما لما تفعلين أو ما تحسبين أنّك مجبرة على فعله. ولديك قدرة مذهلة على تبرير أفعالك...

twitter @baghdad_library

وإذ أغضبني حنقي رحتُ أسحقُ النمال بنَعْلَيّ.

بعد ذلك، تُرى ماذا فعلت بقطعتي الكعك؟ نسيت تمامًا، لكنّ المؤكّد أنّني رميتهما على الفور. ثمّ لا بدّ أنّني غسلتُ لا بل فركتُ الطبقَ حيثُ شكّلت النمال المسحوقة بقعةً سوداء. ففي تلك الفترة كانت سلّة القمامة في البيت تفيض بصنوف الطعامِ الفاسد.

على الرّغم من اختياري الزواج وسيلةً للهروب تاركةً لأخي الأصغرَ أن ينعمَ «بالحياة» مع أمّي، فإنّي أجد اليوم أنّني ما زلتُ في دوّامة تلك «الحياة». كان عليّ أن أغسل الصحون والملاعق الوسخة وكُرة الشوكولا ماثلةً في ذهني. وأن أكدّسَ عند طرف المجلى بقايا وجباتٍ بلون كرة الشوكولا. إذ لم يكن بمستطاعي دائمًا أن أنجو من ضيقِي بتلك «الحياة».

كان خيالُ طاولة الطعام لدينا ينعكسُ بوضوح على زجاج النافذة. فيما تخيّم العتمة في الجهة الأخرى كما في غابة كثيفة الأشجار. وكان قد التهم الطعام كلّه.

ـ هل كان الطعام لذيذًا؟

ورمقته بنظرةٍ لا تخلو من اللؤم.

ـ كان لذيذًا جدًّا، أجاب بنبرةٍ مفعمةٍ بالكياسة. ثمّ نهض واقفًا مُتكئًا إلى حافة الطاولة، وقبّلني قبلةً عابرة. كانت تفوح منه رائحة دمٍ متخثّر.

twitter @baghdad_library

أمعنّا، أبعد فأبعد، في الخريف. لم أنتبه إلى حلولِ الفصل الذي إذا تنشّقنا فيه الهواء ملء رئتينا، تسبّب لنا البردُ بوخزٍ خفيف بين ضلوعنا. وبات العثور على عنب الكولمان أمرًا محفوفًا بالصعوبات. لم يبقَ أمامي إلاّ أن أوصي على عنبِ الخِيَم في قسم الخضار والفواكه في الطبقات السفليّة من المخازن الكبرى. ولمّا كنتُ أقصدها يوميًّا صار الباعة يعرفونني، فلا يكد يلمحني أحدٌ منهم حتّى يهرع إليّ مبتسمًا، حاملاً صندوق الكرتون المزيّن برسوم عناقيد العنب.

ـ انظري، أليس جميلاً هذا الكولمان؟ كانوا يقولون بتفاخر وهم يرفعون غطاء الصندوق لكي يتاح لي أن أعاين العناقيد. فبالنسبة لي كان العنبُ ثمينًا كتذكرة دخولٍ إلى غرفة أخي.

في أعقاب زيارة يوم السبت، يستعيد جناح المرضى

twitter @baghdad_library

سكونَه المعتاد. كان أخي جالسًا على السرير منكبًّا على قراءة إحدى المجلاّت الرياضيّة. عندما غَلَقتُ الباب ورائي، أهمل مجلّته وأشار إليّ بيده. فوق غطاء السرير لمحتُ الصورة اللامعة للحظة التي حسمت الفوز في بطولة اليابان للعبة البايسبول للمحترفين.

ـ آه.

ـ أجل.

كنّا اعتدنا أن نتبادل التحيّة على ذلك النحو المُخيِّب. وضعتُ علبة العنب في الثلاّجة. لم ألحظ في داخلها سوى زجاجةِ مرطّب للأوعية الشعريّة. وكان أخي قد أخبرني أنّه يبقيها هناك لأنّ استعمالها وهي باردة يمنحه بعض الانتعاش. كانت الثلاّجة، الخالية من أيّ أطعمةٍ لا جدوى منها، مشرقة لا بل ساطعة اللمعان.

ـ أعاني من التهاب حادّ في غشاء الفم فأكاد لا أقوى على الكلام. أشعر بأنّ فمي ليس جزءًا منّي.

استدار نحوي وفتح فمه قدْرَ استطاعته. فعل ذلك ببادرة

صبيانيّة محبّبة بحيثُ لا أعير الأمرَ من الاهتمام أكثر ممّا ينبغي.

ـ يجب أن تُطلِع الطبيبَ على ما تعانيه. فلا شيء يدعوكَ لتحمّل كلّ هذا. لن تحتاج إلى أكثر من علاج بسيط، قلت له بنبرة متفائلة. فأطبق فمه موافقًا، منصاعًا.

أثناء الهنيهات التي أعقبت ذلك لم يبادر أحدنا إلى الكلام. انصرف مجدّدًا إلى تقليب صفحات مجلّته وانكبّ بوداعة على قراءة جدول الترشيحات الفرديّة للسباق على الكأس. فيما لبثتُ جالسةً على الأريكة بلا حراك.

كانت الغرفة الخارجة للتوّ من عنايةِ المرأتين المولجتين بالخدمة أكثر إشراقًا ونظافة من المعتاد. هنا لا أشعر بوطأة الوقت إذا لم أجد ما أفعله. ففي وسعي البقاء لساعات من دون أن أفعل شيئًا. إذ يكفي أن أراقب أخي مُستمتعةً بنظافة غرفته التي لا تُضاهى لكي أشعر بالرضى.

كنت أجد الأمرَ مُستغربًا بعض الشيء، أن أتمكّن من البقاءِ وحيدة، ومن دون مشقّة، بقربِ شخص ما، أسيرةَ

twitter @baghdad_library

مكانٍ ضيّق لساعات طويلة، من دون أن أكلّم أحدًا. أنفاسنا، ونبضنا، والذبذبات المنبعثة من جسدينا، كانت تبدو في تناغم تام فلا حاجة بي إلى التفكير في ما لا جدوى منه. عندما أكون جالسةً إلى الطاولة قبالة زوجي عند الثالثة فجرًا أفكّر في ما لا يُحصى من الأمور التافهة. ودائمًا تعاودني ذكرى السائل الذي يغطّي قفّازات اللاتكس أو النمال الناغلة داخل فمي. ولكن أثناء وجودي في الغرفة لا أشعر بضيق أبدًا. وتبقى أحشائي ساكنةً كأنّها فارغة.

لم أكن أحسب، حتّى ذلك الوقت، أنّ أخي يتمتّع بمثل تلك الجاذبيّة. وعندما أجلس على الأريكة بقرب سريره أنصرف إلى رصد المشاعر التي تنتابني حياله. أشبه بقصّة حبّ في بدايتها. شعورٌ بالدفء والرقّة كأنّني أحمل مولودًا جديدًا، عاريًا، بين ذراعي. هذا ما أشعر به دائمًا حين أشعر بأنّني بدأت أحبّ شخصًا ما. إذ ذاك أغتبطُ لكلّ بادرة منه، كلماته، حركاته، جسده، وكلّ شيء فيه يبهجني. وتتبدّد كلّ الجوانب المنفّرة من شخصيّتي، من دون أن تترك أثرًا. أشعر بأنّني أُغسَل من الداخل، وأنّ داخلي يغدو نظيفًا. وإذا بي أشتاق إلى هذا الشخص، شوقًا موجعًا. وكان أخي في غرفة مرضه يوقظ فيّ ذكريات بداية قصّة الحبّ تلك.

مع أنّني لم أحبّه يومًا كرجل. ولم أعر يومًا أيّ اهتمام لفارق الجنس بيننا. أحسب أنّ شعوري هذا ما كان ليطرأ عليه أيّ تبديل لو أنّه كان فتاة. بداية قصّة الحبّ قصيرة جدًّا. إذ نقع على الفور في خضمّ دوّامة العشق. ولا يعود التراجع ممكنًا. ثمّ تأتي أشكال لا تحصى من سوء التفاهم الجسدي لتعكّر صفوَ المشاعر، فيبقى طغيان الرقّة. هذا على الأقلّ ما حدث بيني وبين زوجي. ولكن ما بيني وبين أخي لا يشبه ما بين امرأة ورجل، وبما أنّه الأخ الأصغر وأنا الأخت البكر، لم يكن واردًا على الإطلاق أن نبلغ هذا الحدّ. كنّا لنبقى على تلك الحال إلى الأبد. إذ يكفي أن ننعم بذلك السكون الذي يرين على بداية حبّ. ولأنّنا كنّا دائمًا في البداية، أشعر بأنّه أبدًا لن ينتهي، إذ كنت كمن يؤمن بالأبديّة. كنتُ أزجر، بما أوتيتُ من قوّة، تلك الوَسْوَسة الشيطانيّة المتربّصة بي، الملحّة بسؤالها إلى متى سوف تبقى البداية بدايةً. وعندما تتناهى، آخر الأمر، إلى مسامعي، أودّ أن أجيب: حتّى الممات.

لو لم يُصَب أخي بالمرض لما عرفتُ بالتأكيد كيف أحبّه. فعلاقتنا بمجملها كانت رهنًا بهذا «الأخ الأصغر» لا غير. تراءى لي أنّني التقيته حقًّا بدءًا باللّحظة التي أُدخل فيها لأوّل مرّة إلى غرفته في المستشفى.

twitter @baghdad_library

في الخارج كان الطقسُ بديعًا يُشيع مناخًا من الهناء حتّى داخل الغرفة. الطقسُ بديع كلّ يوم. عمليًّا، منذ عودة أخي إلى طوكيو. والهواء والنور لا يشوبهما من الرطوبة إلاّ أثرٌ قليل. كانت حواف واجهات المباني الضخمة في المجمّع القريب تحجبُ شيئًا من الفضاء فتبرزه بأشكالٍ هندسيّة غريبة.

ـ أخبريني...

لم أنتبه إلى أنّه، بعد أن وضع المجلّة على المنضدة بقرب سريره، راح يحدّق بثباتٍ في نقطة ما أمام عينيه، وقد ألقى بوسادة فوق ساقيه الممدودتين.

ـ ماذا يفعل زوجك؟

كان سؤاله مباغتًا فقلتُ بعفوية:

ـ ماذا؟

ـ إنّه يوم السبت، لذلك أسأل ماذا يفعل، قال وهو

يمرّر لسانه على ورم الغشاء داخل فمه.

ـ ما زال منهمكًا باختباراته. أنتَ تعلم جيّدًا أنّها لم تنتهِ ولن تنتهي يومًا. لو كنتُ في حالته لفقدتُ صوابي. لكنّه بالتأكيد مهتمّ بك. فهو دائمًا يسألني عنك. وأحسبُ أنّه يشعر بسوء لعدم تمكّنه من زيارتك.

ـ هذا ليس أمرًا مهمًّا.

كان يحدّق بثباتٍ بجدار الغرفة. بياض عنقه ويديه يبدو متناغمًا مع زرقة بيجامته. كان بياضًا ناصعًا كأنّ كلّ خليّة من خلايا بشرته تشفّ حتّى يُرى من خلالها. وكنتُ حزينة وقلقة لمجرّد الظنّ بأنّ تلك الشفافية ستواصل انتشارها وتكسو جسمه كلّه حتّى يموت جسمُهُ فعلاً كأنّه يتبخّر. بدت نظرات أخي كأنّها تخترق جدار غرفته لكي تتبدّد في البعيد.

ـ هل الأمور بينكما على ما يُرام؟

ـ أجل. نبذل جهدنا لكي تكون كذلك.

ـ ربّما لأنّني لم أركما من قبل سويًّا، ولكنّني لا أستطيع أن أتخيّلك متطلّبة أو غيورة أو شغوفة به.

ـ لا أتصرّف معه بهذا القدر من المغالاة. إنّها الحياة

twitter @baghdad_library

التي تكرّر نفسها. نأكل، وننام، ونرمي الفضلات. إنّها الحياة، لا أكثر ولا أقل.

تكلّمتُ وقد تراءت تباعًا قشدة الشانتيي المكسوّة بالنمل ويخنة اللّحم منعكستين على زجاج الكابينة المطلّة على غرفة الجراحة.

ـ الحياة بلهاء، كما تعلم، قذرة وتافهة.

ـ أتعتقدين...

تناهى صوته رخوًا، فاقدَ النبر، مثل قُربان. تناهى إلى مسامعنا صوت عجلات كرسيّ متحرّك يعبر من وراء الباب. فسارع أخي إلى تبديل موضع الوسادة لكي يكوّر جسمه تحت الغطاء.

ـ هل سمعتَ من قبل عن التدريب من خلال تظهير الصور؟ ذاك الذي يمارسه هواة الرياضة، أردفتُ قائلةً فيما كان ينظر إليّ ملتحفًا بالغطاء حتّى كتفيه.

ـ أجل، سمعت عنه.

ـ هذا ما أفعله بين الفينة والفينة. بينما أنتظر عودته مساءً، أتخيّل أنّ علاقة مثاليّة تجمع بيننا. أبدأ بالابتسام قليلاً، بالمقدار الذي يتيح لي أن أتنفّس بهدوء، على طبيعتي. ثمّ، وهذا هو المهمّ، أبذل ما أمكنني من جهد لكي لا أتكلّم كثيرًا. لأنّني غالبًا ما أضجره بحديثي عن كلّ شيء دفعة واحدة. لذا أبادر إلى حديث يسرّنا نحن الاثنين. بعد ذلك من الطبيعيّ أن يداعب شعري ويضع يده على كتفي، أقصدُ أنّ هذا الشكل من أشكال الصلة الجسديّة كان اعتياديًّا بيننا، في حجرة متقنة الترتيب حيث الأثاثُ يبرق لشدّة ما فُرِكَ... إذ تزداد الصور وضوحًا، وتمثُل مجسّمةً، أجدُ أنّني في حالٍ مماثلةٍ أُلاقيه مجدّدًا على أرض الواقع.

ـ وكيف تجري الأمور؟

ـ يعود إلى المنزل، فلا تمضي أكثر من ثوانٍ أو دقائق معدودة حتّى تنتشر هذه الصور بَدَدًا. أقلّ بادرة، كلمة، إيماءة شقيّة، تكون كافيةً لمحوها. عادةً ما يكون انتظاري طويلاً فتتداخل الصور فيما بينها وتختلط، وفي آخر المطاف قد لا يعود ليلتها إلى المنزل.

ـ آه.

بحركة شابها بعض المغالاة، أومأ برأسه مؤيّدًا. وصمت هنيهاتٍ قبل أن يُردِفَ قائلاً من دون أن يحيد بنظره

twitter @baghdad_library

عنّي:

ـ سوف أموت جاهلاً أمورًا شتّى. لن أقدر حتّى أن أخوض تجربة الزواج. وقتي لن يتّسع لذلك.

شعرت بأنّ الكلمات تتساقط واحدة تلو الأخرى بين السرير وبيني. ولا أدري كيف ألملمها. فتنبّهي فجأةً إلى أنّه يفكّر في الموت على هذا النحو من الواقعيّة، كان كوجع يخترق صدري، أو كأنّني أُرغمتُ على ابتلاع قطعة من الجليد.

ـ من كان ليحسب أنّني سأموت قبل اختبار المضاجعة.

أعتقد أنّها كانت المرّة الوحيدة التي تردّد فيها على سمعي صدى هذه العبارة بقدرٍ مماثلٍ من الفجاجة. لم يكن وجهه لا حزينًا ولا مستوحدًا، بل كان ينضحُ برقّةٍ ساذجة. نهضت عن الأريكة، واتكأت إلى حافة النافذة. كان الطريق المنحدرُ المفضي إلى المستشفى كأنّه امتداد تقريبًا لممرّ حرم الجامعة المشجّر بالجينكغو. وكان خاليًا من المارّة. فانتابني شعورٌ بأنّنا، أنا وأخي وتلك العبارة الفجّة، متروكون، هنا، لمصيرنا.

ـ . . . مضاجعة؟

خيّل إليّ أن صوتي قد شابته بُحّة خفيفة.

ـ إنّه ليس أمرًا فريدًا، كما تعلم. إنّه جزء من أمور

الحياة، ثمّ يستحيل تكرارًا كغيره.

من دون أن ينبس بحرف، حجبَ جانبًا من وجهه تحت الغطاء. وكنت أمرّر إصبعي على طرف دانتيلاّ الستارة.

ـ هذا ما يفعله عادة جميع الناس في هذه الحياة السخيفة. وأن يفعله المرء أو لا يفعله خلال حياته ليست هي المشكلة حقًّا. لا تدع الأمر يُحزنك. أرجوك.

ـ لا تقلقي، يا أختي الكبيرة.

كان قد احتجب كلّه تحت الغطاء حين قال ذلك. أثّر فيّ كثيرًا أن يدعوني أختي الكبيرة فاغرورقت عيناي بالدموع. كان هزيلاً، ملتحفًا على ذلك النحو بغطائه، فودِدتُ لو أهدهده بين ذراعيّ.

ابتعدت عن النافذة لكي أقترب منه راكعةً عند سريره. شعرُه فقط كان باديًا من تحت الغطاء. وبعد أن وضعت يدي عليه أدركتُ، من رعدة خفيفة سرت في جسمه، أنّه يبكي. ولمّا كان لا يُصدرُ صوتًا، شعرتُ بأنّ دموعه تنسكب على الملاءة.

. . . لا تبكِ هكذا. . .

كنت أداعب شعره.

. . . أنا أفضل حالاً هنا، بقربك، في هذا المكان المَصونِ كأنّما الزمن قد توقّف. عندما أداعب شعرك على

twitter @baghdad_library

هذا النحو، أشعر بسخونة جسدك تتسرّب متهاديةً عبر مسام يدي، وأشعر بالراحة. لذا لا تبكِ...

داعبتُ شعره مرارًا وتكرارًا، كأنّني أصلّي. لولا بكاء أخي لكان سبتًا مثاليًّا. كنّا وحيدين، أنا وهو، لا يزعجنا أحدٌ، بعيدًا من هموم الحياة، متحابّين، وملء يدي إحساسٌ ممتع. ومع ذلك لم يكفّ عن بكائه الشفّاف.

أبدًا لم يبكِ بعد ذلك، ولا أتى على ذِكْر الموت. كان يأكل عنبَه مُتجرّدًا عمّا يفعله، فيما أذهبُ، على الأثر، لرمي القشور والبذور في مستوعب القمامة. مِرارًا تعاودني ذكرى ذلك المشهد خلال اليوم الواحد، وتؤلمني. كان إحساسي بملمس شعره يُنهك أحاسيسي شيئًا فشيئًا. ففي غرفة المرضى تلك حيث كلّ شيء على ثباته، كان هو وحده يُعاني الوهنَ المتفاقم المحتوم.

بعد ظهر يوم السبت التالي، سلكتُ الطريق المنحدر قاصدة مكتبة الجامعة بناءً على طلبه لكي أحضر له كتبًا. أنا أيضًا كنت أحبّ المكتبة كما أحببتُ غرفته في المستشفى. فهناك أيضًا لا يشعر المرء بالحياة. الهواء فيها مُطبق العينين، مطأطئ الرأس بصمت. كلّ من فيها منكفئ على ذاته، بحيث أنّ لا أحد يعكّر صفوَ مشاعري.

كان سقف المكتبة عاليًا، وإذا سَلَكَ المرءُ الأروقة بين الأرفف تتراءى من أعلى النافذة صُفرةُ وريقات الجينغكو الفاقعة وزرقة السماء. كان السقف من العلوّ بحيث أنّ الناظرَ، على نحوٍ متعاقبٍ، إلى ظهور الكتب والنافذة قد

twitter @baghdad_library

يعتوِرهُ الدوار. فيما خفق الكعوب الهامسِ على الأرضيّة الخشب يَسمُقُ إلى الأعلى.

حاملةً بيدي اللائحة التي زوّدني بها أخي، انتقلت من قسم تاريخ الفنّ إلى المسرح، ثمّ إلى قسم الأدب الأميركي المعاصر، وفيما كنت أبحث عن حرف «إ» للعثور على أعمال إيرفنغ سمعت من يناديني باسمي من الخلف.. استدرت ورأيت س. وكانت رؤيته على هذا النحو، خارج المستشفى وبملابسه العاديّة بلا مئزر أبيض، أمرًا غير اعتياديّ بالنسبة لي، لذلك رحتُ أرمقه بنظرات مُدقّقة من رأسه حتّى أخمص قدميه.

ـ هل ت... تأتين غالبًا إلى هذا المكان؟ سألني بصوتٍ خفيض مُقرّبًا وجهه. وتبسّمتُ حين لاحظتُ أنّه يتأتئ حتّى إذا تكلّم همسًا.

ـ أجل، ولكنّي جئتُ اليوم بطلبٍ من أخي.

كان يرتدي ملابسَ مُريحة، جينز وسويتر فاتح اللون. وكان كلّ ما في وقفته جميلاً، الزاوية التي منها يرمقني بعينيه، منحنى كتفيه، سَمْك عضلاته، ملتقى وركيه وساقيه، كلّها تليقُ ببطلٍ في السباحة كما اعتدت أن أراه وهو يرتدي مئزره الأبيض.

ـ أحقًّا؟ أنا أيضًا غالبًا ما آتي إلى هنا لأنّنا لا نعثر في مكتبة الكليّة على كتبٍ حول مواضيع أخرى غير الطبّ.

كان صوتانا يمخران الهواء الساكن لكي يرتطما، بعد ذلك، بالسقف. وكان الطالب الجالس خلف مكتب الإعارة قد توقّف عن تصنيف بطاقاته وراح يحدّق بنا.

ـ هلاّ خرجتِ برفقتي لكي نتحدّث؟ سألني بصوت تعمّد أن يكون أكثر همسًا لكي لا يُزعجه.

ـ أجل، هلاّ انتظرتَ قليلاً ريثما أستعير كتابًا؟

سارعت إلى انتقاء «فندق نيوهامشاير» من مجموعة حرف «إ»، وحملته، مع الكتابين الآخرين، إلى الكونتوار.

لمّا فتحنا باب المكتبة ألفينا نفسينا أمام الممرّ الرئيس للحرم الجامعي، وعلى جانبيه تبرق وريقات أشجار الجينكغو. كانت الأشجار تتمايل مع الهواء حتّى لو كان نَسَمًا، عاتقةً وريقاتٍ منها فتسقط على الأرض متهادية. كانت أطرافها الصفرُ تبدو نافرةً على خلفيّة السماء الزرقاء. وإذ يطول أمد سقوطها المتهادي الموارب يُتاح لها أن تبرق مرارًا قبل افتراشها الأرض.

ـ من بين أمكنة الحرم جميعها، هذا هو المكان المفضّل عندي في فصل الخريف. إنّه بديع، أليس كذلك؟ قال س. عند أعلى درجات المكتبة. وإذ وافقته الرأي رحت أتتبّع بعينيّ الوريقات التي تتساقط وراءَ صورته الجانبيّة الطاغية.

ـ هيّا بنا إذًا؟

twitter @baghdad_library

حثّني على هبوط درجات السلّم. ومشيتُ إلى جانبه، مُسندةً ساعدي إلى حقيبتي محاولةً أن أحملها بطرقٍ مختلفة، لأنّها كانت منتفخة الجوانب بسبب الكتب الثلاثة التي احتوتها. كانت الوريقات اليابسة تتكسّر تحت أقدامنا. وكان بعض ظهر يوم سبت، وعدد الطلاب في الحرم قليلاً، والجميع يتمهّلون في سيرهم.

ـ ألست متعبة؟ أقصد بين ملازمة المريض والعمل والمنزل؟

ـ لا بأس. عندما أكون في الغرفة لا أشعر بتعب على الإطلاق.

ـ أحقًّا؟

بعد ذلك، اكتفينا بأصوات تكسّر الوريقات تحت أقدامنا.. ولم نتبادل ولو كلمةً واحدة.

كان ثمّة حديقة صغيرة خلفَ كليّة إدارة الأعمال. اصطحبني س. إلى مطعم الموظّفين القائم هناك. مبنى قديم من الخشب على الطراز الغربي، كراسيه وطاولاته وحتّى زيّ النادلات فيه تبدو كلّها قديمةً بعض الشيء. أغرتنا الشرفة الجنوبيّة المَشمِسة، فحملنا قهوتنا وجلسنا فيها. عندما لا تهبّ النسائم كنّا نشعر ببعض الحرّ كأنّ نسيجًا رقيقًا يكسو جسدينا. ولكن ما إن يهبّ يهبّ النسيم

تسود الطراوة ونشعر بانتعاش مفاجئ على الوجنتين والعنق. فيما وريقات الجينكغو تتساقط حتّى على الطاولات.

من دون مئزره الأبيض كان س. يلبث صامتًا. لكنّ صمته لم يكن مُزعجًا.. لذلك لا أبذل جهدًا في الاهتداء إلى ما نتحدّث عنه. أزواج من كلّ نوع، أستاذ وطالبة، أستاذ مساعد وطالب أجنبي، رجل وامرأة من المستخدمين الإداريين، جلسوا هناك يتناولون طعام الغداء برغم الوقت المتأخّر أو فردوا أوراقهم على العشب الذي افترشوه.

طرح عليّ السؤال نفسه مرّة ثانية:

ـ أحقًّا لا تتعبك ملازمة المريض؟

ـ لا، على الإطلاق. أحبّ غرفته. وأحبّ أن أكون معه في الغرفة.

ـ لماذا؟

ـ طبعًا، ليس المرض هو ما يستهويني. ببساطة أنا أحبّ أخي، واكتشفت مؤخّرًا أنّ الغرفة هي المكان المثالي لأن تكون بقرب من تحبّ. أجد مشقّة في تفسير هذا الأمر، لكنّه على هذا النحو. وأحسب أنّ تفسيراتي لن تزيد الأمور إلاّ غموضًا.

أحنيت رأسي لكي أرشفَ جرعةً من القهوة.

twitter @baghdad_library

ـ أ. . . أفهم جيّدًا ماذا تعنين بقولك إنّك تحبين أخاك.

بدا لي أنّ الجانب المحبّب من شخصيّته يظهر من خلال تلعثمه. فبين تناسق تكوينه الجسماني وبين طريقته في الكلام، يُمكّنُ تبيانُ مزاياه على أكمل وجه.

ـ أودّ أن أطرح عليك بضعة أسئلة بشأن الميتم؟

كنت أحسب أنّ عدم إغفال مسألة الميتم تلك هي أفضل وسيلة لفهمه.

ـ بالتأكيد، اسألي من دون حرج، أجاب مُبتهجًا.

ـ قُل لي لِمَ كان المنزل الذي تربّيتَ فيه ميتمًا؟

ـ السبب بسيط. فمنزلي، في الأساس، كان كنيسة يجتمع فيها الأولاد البائسون تلقائيًّا، وعلى هذا النحو كان اختلاطهم بحياة أسرتي. وبما أنّها كنيسة، هناك متّسع، وبما أنّها لإشرافِ ديني لا تواجه الكثير من المشكلات الماليّة، وبما أنّها تضمّ كثيرًا من الرعايا المخلصين المستعدّين للمساهمة، فقد ألفيتها منذ ولادتي ميتمًا أكثر من لائق.

ـ لقد ولدت إذًا في ميتم، لكنّك لست يتيمًا.

ـ لا لست يتيمًا ولكنّني تربّيت مثل يتيم. أحسب أنّ والديّ اعتبرا، عند ولادتي، أنّ عدد الأيتام في عهدتهما قد ازداد واحدًا. ولا بدّ أنّ دافعهما إلى ذلك كان الخشية

من أي تـ . . . تمييز.

ـ إذن، كنت تأكل وتنام كالأيتام الآخرين؟

ـ طبعًا، كنت أتصرّف كيتيم.

في تلك اللّحظة هبّت نسائمُ عاتية بعض الشيء، وتساقطت وريقة جينكغو بين السكّرية وعلبة الفُوَط الورقيّة. فالتقطها برفق بين إصبعين ثمّ أسقطها على الأرضيّة عند قدميه.

ـ لهذا السبب ليس لديّ أدنى فكرة عمّا تكونه العائلة. فالأيتام الحقيقيّون كانوا يغادرون الميتم، تباعًا، عندما يعثرون على عائلة تستقبلهم، أمّا أنا فكان عليّ أن أبقى يتيمًا حتّى النهاية.

اقتربت النادلة باحتراسٍ وسكبت ماءً في كوبينا.

ـ تمكّنتُ أخيرًا من التخلّص من يُتمي عندما أصبحت ر . . . راشدًا.

مرّر إصبعه على قطرات الماء التي تكسو ظاهر كُوبه.

ـ أحسبُ أنّ أجواءً من الصخب تسود مواقيت الطعام في الميتم، أليس كذلك؟ لاحظتُ قائلةً مشيحةً بوجهي ومحدّقةً بشيء ما بعيدٍ في الحديقة، رغبةً منّي في تلطيف الأجواء.

ـ من هذه الناحية، بلى. فإذا أحصينا الأولاد الذين لم

twitter @baghdad_library

يبلغوا سنّ الذهاب إلى المدرسة، ووالدي، أقصد «الأستاذ» كما كان يسمّيه الأولاد الآخرون، والمُحسنون الذين يمدّون يد العون، يكون المجموع عادةً نحو عشرين نفرًا جالسين حول مائدة الطعام. لذلك بعد الوجبات تستحيل الأرضيّة تحت الطاولة بحرًا من الفتات والفضلات. من دون مبالغة. وكان على الأولاد المولجين بالخدمة أن ينظّفوا كلّ البقايا بالمكانس ذات السجف.

كنت أتخيّل حبّات الأرزّ وقطع السباغيتي وأعقاب البقول ملتصقة مع الغبار بسجفِ المكانس.

ـ طبعًا لا يسعك أن تتخيّلي مائدةً و... وسخة في أجواء صاخبة مثل هذه.

ـ بلى، بلى.

هززتُ رأسي بقوّة.

ـ والدتي كانت مصابة بمرض عقليّ خطير، لذلك كان بيتنا باستمرار في حالة يُرثى لها. لم تكن تعرف كيف تعيش. وفي آخر المطاف فقدت كلّ طاقة على العيش.

ـ لقد أخبرتني بأنّها ماتت قتلاً، أليس كذلك؟

ـ بلى. بطلق ناري أثناء سطو مسلّح على أحد المصارف. شعرتُ بارتياح.. فعندئذ أدركت أنّ البيت الذي ترعرعت فيه لم يعد موجودًا. وما عدتُ مرغمة على العودة إلى تلك الحياة

التي كانت أمّي قد أحالتها إلى فوضى عارمة.

ـ هل كانت الفوضى عارمة إلى هذا الحدّ؟

ـ ربّما كان الأمر مجرّد حساسيّة فيزيولوجيّة. لكنّ العيش مع شخص مصاب بمرض عقلي هو أشبه بتناول الطعام إلى مائدة وُضِع في وسطها بُوقالٌ مملوء بالفورمول يحتوي على جنين بلا رأس.

احتسيتُ ما تبقّى من القهوة في كوبي. وخيّل إليّ أنّني أشتمّ رائحة الفورمول التي لم يُتَح لي من قبل أن أشتمّها.

ـ مثل هذا الأمر لا يقتصر على المياتم. فالأرجح أنّ الموائد في المنازل لا تكون، بالإجمال، نظيفة.

ـ ح... حقًّا.

كانت الشمس التي تُنير الشرفة قد مالت إلى الأفول. وبدأ زحفُ الظلال خلفه. ولم يبقَ سوانا على الشرفة.

ـ غرفة المستشفى مُطهّرةٌ تمامًا من منغّصات الحياة كلّها. وعندما أكون بصحبة أخي في تلك الغرفة، أشعر بأنّني ملاكٌ أو جِنيّة. أحسب أنّني قادرة على العيشِ بالحبّ الذي أكنّه له. لا أكثر.

ضحكَ. ورمقني بنظرةٍ ملؤها الحنوّ كأنما يُخاطب، فعلاً، ملاكًا أو جنيّة. كان يوقظ فيَّ الحاجةَ إلى من يواسيني.

twitter @baghdad_library

ـ أحسدك لأنّك قادرة على حبّ أخيك بهذا المقدار. أنا... أنا الذي جعلت منّي الظروف يتيمًا.

مرّة أخرى تخيّلت، من خلال السويتر الذي يرتديه، عضلات صدره المكسوّة بقطرات الماء.

ـ لكن...

كان صدره ماثلاً أمام عينيّ، مثل سرير دافئ وثير.

ـ لكن إذا مات أخي فسأصبح أنا أيضًا يتيمة.

تدافعت الكلمات من تلقائها، مع أنّني لم أكن راغبةً حتّى في التفكير في احتمالات موته. وخلّفت صَدعًا في قلبي تغلغلت فيه النسائم الوافدة من ورائه. فمهما فعلت، حتّى تنعّمي بشمس الخريف الباهرة بصحبة يتيم ذي عضلات مثاليّة، لن يُبدّد شيئًا من حزني الذي لا عِوَض له. وكنت أخالُ جسدي مُصدّعًا من كلّ موضعٍ فيه.

ـ لا تقلقي فإنّ اليُتـ... اليُتمَ ليس أمرًا حزينًا بهذا المقدار. فالجميع مُـ... مُعرّضون لليُتم بأهون السُبُل.

وافقته بمنتهى البَلَه. إذ أردتُ أن أقول شيئًا ما، غير أنّني لم أستطع مداراة دموعي. ووَدِدتُ من كلّ قلبي أن ألوذ بسرير العضلات لكي أغرق طويلاً، في سباتٍ عميق، ملء أجفاني، وإلاّ استحال جسدي حطامًا.

حلّ الشتاء مُباغتًا. وكان أخي يزداد وَهَنًا وحالته الصحيّة في تدهورٍ متسارع، حتّى أصبح، في آخر المطاف، عاجزًا عن أكل العنب. فقط سائل بلون العنبر أو النبيذ يُحقَن، بمشقّةٍ، في عروقه، ويَنْقُط، قطرةً قطرةً، من أكياس صمغٍ اصطناعي، كثيفٍ، كأنّه صَلب.

بُعَيد أعمال التنظيف الدؤوب، كانت الممرّضة تأتي بالأكياس المملوءة بالسائل، والأنابيب المزوّدة بمغارز عند أطرافها، وبرزمةٍ من الأكياس الصغيرة التي تحتوي إبرًا مفرّغة. وكانت تنصرف إلى نزع الضمادات اللاصقة ووصل المغارز، وضَبط وتيرة النَقْط. على ذراع أخي، الهزيلة البيضاء كأنّ لا قطرة دم واحدة تجري فيها، كانت تشدّ رباط الكاوتشوك لكي تبرز الأوعية الدمويّة، ثمّ تثبّت الإبرة والمغرز بضمادٍ لاصق. حتّى لو كنت ألبث طويلاً وأنا أراقب السائل ينقط قطرةً قطرةً حتّى الدوار، كانت الأكياس دائمًا تفرغ من محتواها فيتسرّب الدمُ الزهريّ إلى مغرز الأنبوب. عندئذ كانت الممرّضة تعود إلى الغرفة لتقومَ ثانيةً بما قامت به في السابق ولكن بتتابعٍ معكوس. إذ

twitter @baghdad_library

يُلقى مباشرةً بأكياس الصمغ الاصطناعي، والمغارز والإبر في مستوعب النفايات.

لهذا السبب لم أعد مُرغمةً على فتح باب الحجيرة الثقيل حيث مستوعب النفايات. إذ لم يبقَ في الغرفة ما يتوجّب رميه.

في تلك السنة شهدت طوكيو موجة ثلج لم تشهده منذ عشر سنوات، وكان يتساقط يوميًّا بكميّات لم يسبق لها مثيل. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أشهد فيها المدينة مكسوّة بطبقةٍ كثيفة من الثلج. ذات يوم، لدى نهوضي من النوم فوجئتُ بالثَلجة الأولى. أثلجت طيلة النهار، وازداد الثلج غزارة وكثافة ولم يحلّ المساء حتّى غطّى كلّ شيء، السماء والهواء والريح. بعد ذلك تعاقبت أيّام تليق ببلد ثلوج. وكانت نافذة الغرفة تومِض بانعكاساته، حتّى أثناء الليل. كان أخي الذي بات عاجزًا عن النهوض والسير، يسألني، وهو طريح الفراش، كيف أراه. فأحاول عندها أن أجيبَه بالقدر الممكن من الكلمات.

ـ أشبه بتساقط ما لا يُحصى من بَتَلاتِ الوردِ الأبيض.

ـ كأنّ براعم البتولة تُبْعَثُ من التراب.

ـ هو اليوم أشبه بالذرور، كأنّه طحين. وأؤكّد لك أنّ من يمشي عليه قد يغرق فيه.

هكذا كنت أصفه له، وكان يلتفتُ إلى النافذة ويجيب

قائلاً :

ـ آه، أحقًّا؟

كنّا نلبث مُستغرقين في التأمّل، هو يتأمّل الثلج المكوّم على حافة النافذة، وأنا أتأمّل خياله الذي صار أكثر فأكثر شفافية.

كان عدد الطلاب يتناقص مع تزايد كثافة الثلوج. وبعد انتهاء الامتحانات كانت تنتظرنا عطلة طويلة، لا بل طويلة جدًّا. ولم يكن ذهابي إلى المكتبة، بعد ظهر كلّ يوم سبت، ليخفّف من وطأة وحشتها، إذ أجدها خاليةً تمامًا. فأقوم بجولة على قاعة القراءة وقاعة الوسائل السمعيّة البصريّة، فقاعة الأبحاث، ثمّ أنتقل إلى قاعات الرفوف، كأنّني في نزهة. كنت أكتفي بالتجوال في أرجاء تلك المكتبة لا أدري إذا كنت أودّ التفكير في شيء ما أو، على العكس، طرد كلّ الأفكار من رأسي. أثناء تجوالي بين الأرفف، ولدى بلوغي الناحية المخصّصة لحرف «إ» من قسم الأدب الأميركي المعاصر، غالبًا ما كنت أصادف س. واقفًا هناك.. لم يسبق لنا أن تواعدنا على اللقاء، كما أنّني، في البداية، لطالما حَسِبتُ الأمر مستهجنًا، ولكنْ نظرًا لما يتمتّع به من موهبةٍ مميّزة في مواساتي، كنتُ أوفّر على نفسي طرح الأسئلة غير المجدية وأقضي بعض الوقت بصُحبته. برهة من البساطة، نرشف خلالها فنجانَ قهوة في المطعم القديم خلف كليّة إدارة الأعمال.

twitter @baghdad_library

كانت أرضيّة الشرفة التي أخليت من الكراسي والطاولات، مكسوّة بالثلج، وما عاد ممكنًا تناول القهوة عليها. أمّا في الداخل فكانت الحرارة خانقة وكم ودِدتُ أن أخلع سترة الصوف التي أرتديها تحت المعطف.

الحديقة محتجَبة تحت الثلج. ولا شيء يذكّر بصفرة الجينكغو المرتعشة في مهبّ النسائم المنعشة. وكنتُ أشعر بأنّ الوقت الثمين المتبقّي لأخي، ولي أنا، قد طمرته الثلوج على الرغمِ منّا.

ـ أعتقد أنّهم غدًا سيقفلون أبوابهم حتّى الموسم الدراسي المقبل.[1]

ـ حقًّا؟

سوانا، لم يكن هناك إلاّ شخص واحد، بدا أنّه أستاذ، وقد فرد أوراقه وملفّاته أمامه منكبًّا على تدوين بعض الملاحظات. أمّا النادلة فكانت متكئةً بمرفقيها إلى كونتوار الصندوق.

ـ إذًا، لن يسعنا بعد الآن أن نلتقي هنا. مع أنّ المكان محبّب ورائع. حتّى أنّني أتساءل إذا كان الموسم المقبل سيحلّ حقًا. يبدو لي أنّ ذوبان هذه الكميّة الهائلة من الثلوج سيستغرق وقتًا طويلاً جدًّا، قلتُ وأنا أحدّق في

(١) في اليابان يكون ذلك في شهر نيسان، الموسم الذي تبرعم فيه أشجار الكرز.

قطرات الماء السائلة على الزجاج.

ـ لا بدّ أن يحلّ في يوم ما.

ـ تُرى هل سيبقى أخي على قيد الحياة حتّى ذلك الوقت؟

شبكَ ساقيه ثمّ فرّج بينهما تحت الطاولة، وحرّك قهوته بالملعقة، وفي النهاية لم يُحِر جوابًا. وهذا بالضبط ما أردته. فقط كنت أودّ أن أسمع كلماتي وهي تتكسّر على صدره.

ـ في الآونة الأخيرة بتّ أشعر بأنّ اللحظة باتت وشيكة.

ـ مـ... ماذا؟

ـ أخي... اللحظة التي ستشهد رحيل أخي.

كنت أعبّر عن أشدّ مخاوفي قسوةً، ومع ذلك أتخيّل روعة عضلاته التي تليق ببطل سباحة. كنت أستمتع بتلك الصورة، وفي الوقت نفسه أتألّم لفرط ما أشفق على أخي. والمتعة والألم يتعاظمان حتّى تضيق بهما أضلعي.

كنت أشعر بأنّ عضلاته تنبسطُ بليونة حتّى أطراف أصابعه التي تحرّك الملعقة.

... هل كانت أصابعه تداعب أجساد مرضاه في كلّ موضعٍ منها؟ هل كانت تتلطّخ بالدماء، بالسوائل الهضميّة

twitter @baghdad_library

أو المعقّمة؟...

كنتُ أنقّل نظراتي المتشبّثة بأصابعه وذراعيه وكتفيه وصدره.

ـ هلاّ ضممتني بين ذراعيك؟

لقد نطقت للتوّ بما ينمّ عن جنون مطبق، ومع ذلك لبثتُ ساكنة. وبدا س. أكثر هدوءًا.

ـ ماذا تقصدين؟ سألني من دون أثر لانفعال أو تأتأة.

ـ لا شيء قد يكفيني أن تضمّني بين ذراعيك. فقط بين ذراعيك.

كأنّ ثقبًا ضئيلاً فُتِحَ في صدري المضطرمِ، وانبعثت منه تلك الكلمات المجنونة.

ـ هذا المساء... في إحدى غرف المستشفى، سرير في غرفة مثاليّة النقاوة، قد تفي بالغرض.

ـ حسنًا. بإمكاني أن أفعل ذلك.

أشعرتني عبارته المدروسة، المجرّدة من أيّ فضولٍ عدواني، بالطمأنينة. كان الثلج يتساقط لا يزال، والأستاذ يكتب، والنادلة غارقة في سهو أحلامها. احتسينا قهوتنا مُتمهّلَين لكي لا نعكّر السكون من حولنا.

كانت أعيننا شاخصةً نحو سلّم الطوارئ الذي يمتدّ صُعُدًا وبشكلٍ حلزونيّ على طول الواجهة الخلفيّة من مبنى المستشفى. السماء كالحة الظلمة ولا أثر لقمر أو نجم. فقط ثلجٌ ناعم كالذرور يتساقط مدوّمًا. كانت النُدَفُ تلتصق بشعره وحاجبيه وقطب سويترهِ. وكان السكونُ مُطبقًا كأنّ الهواء قد تجمّد كليًّا.. ولا أثر لريح.

ـ هلاّ انطلقنا؟

راحة س. لامست ظهري. ولمّا كنت قد تلفّعتُ بشالٍ سميك، لم أكن قادرة على الإجابة بإيماءة من رأسي.

ـ هيّا، أجبتُ وأنا أحاول أن أضع رِجلي بثبات على الثلج المتراكم فوق الدرجة الأولى، كأنّه طبقة سكّر ناعم فوق قطعة حلوى.

كان السلّم الحلزوني زلِقًا وما كنت لأجرؤ على تسلّقه لولا تشبّثي بالدرابزين بيد، وبذراعه باليد الأخرى. بذلت من الجهد كي لا أقع، ما استنفد طاقتي على الفور، ورحت ألهث. فاضطررنا إلى التوقّف قليلاً كلّما تسلّقنا

twitter @baghdad_library

أربعة طوابق.

كان يسألني بقلقٍ على الدوام إذا تعبت أو شعرت بالبرد. أمّا هو فكان يتسلّق السلّم بيُسرٍ، وبحركاتٍ موزونة متناسقة، كأنّه تمرّس طويلاً بتسلّق السلالم الحلزونيّة المكسوّة بالثلوج.

كانت الظلمة الحالكة تقترب منّا كلّما صعدنا، فأشعر بأنّ السماء تمتصّني كما امتصّت جاك الذي تسلّق نبتة الفاصولياء. ويخيّل إليّ بأنّني سأكتشفُ الأغوار التي ينبع منها هذا الثلج المتساقط كلّه.

تجاوزنا الطابق الخامس عشر حيث غرفة أخي، قبل أن نبلغ السادس عشر والأخير. في الأسفل آثار أقدامنا تمتدّ نزولاً وفقَ خطّ حلزوني منقّط. كان لهاثنا مسموعًا، وبخار أنفاسنا، الأبيض، يتداخل ويختلط.

ـ انتظري قليلاً.

فتحَ بابًا للطوارئ بحذرٍ شديد، وألقى نظرةً إلى الداخل.

ـ أما من أحد؟ سألت قلقةً وقد بنّج البردُ شفتيّ. كان هاجسي العثور على مبرّرٍ مُقنعٍ في حال افتضح أمرنا، وإن كنتُ في قرارة نفسي لا آبه كثيرًا لافتضاح أمري.

ـ حسنًا، قال، وأفسح في المجال لكي أتقدّمه.

كان الممشى في تلك الساعة غارقًا في ما يُشبه العتمة. وحده بصيص من ضوء يترامى إلينا من مقرّ الممرضات. أبواب الغرف مغلقة بإحكام، ولا أثرَ لكائن حيّ. كنت أتقدّم على رؤوس أصابعي، ويدي ما زالت متشبّثة بذراعه، حريصةً على عدم التسبّب بأي ضجّة.

أدخلني إلى الغرفة الرابعة انطلاقًا من باب الطوارئ.

كانت العتمة تسودها كما في الممشى، غير أنّني سرعان ما تآلفت مع المكان. ذلك أنّ كلّ ما في الغرفة كان مماثلاً لما أَلِفته في غرفة أخي، بما فيها انعكاسات الثلج وراء النافذة.

ـ هل أشعل النور؟

ـ لا، أبقِ كلّ شيء على حاله.

ـ هل تريدين أن أخلع م... ملابسي؟

ـ أجل. أريد أن أتحسّس عضلات صدرك وهي تضمّني.

لم يطرح عليّ س. سوى أسئلة أستطيع الإجابة عنها. ولو أنّه نطق، لو مرّة واحدة متأتئًا، بكلمة لماذا، لمكثتُ جامدةً في مكاني كطفلة خرساء.

لم يكن، في نظري، عشيقًا كما لم يكن زوجًا أو رفيق صبا، بل كان شخصًا مجرّدًا. فلا وجود لماضٍ بيننا، ولا مستقبل، فقط أخي الموشك على الموت. وكنت أحتاج

twitter @baghdad_library

إلى عضلاته لكي أعتني بأخي.

عند الجانب الآخر من السرير كانت ملابسه تُنتَزع عن جسمه كقشرة ثمرة. ومَثل صدره أمام ناظري ككتلةِ عَتمة. كانت ترتسم حوله هالة من ضياء الثلج. وترتسم عضلاته في هيئة أخّاذة في وسط العتمة الحائلة. خلعتُ قفّازي وشالي ومعطفي ولم تفارقه عيناي.

استلقينا على السرير بصمت. شعرت بطراوة الملاءات النظيفة على خدّي. وضعتُ خدّي على صدرِه الأعزل، وإذا بذراعيه تضمّانني بقوّة ودعة. كان كلّ شيء ساكنًا من حولنا، إذ امتصّ الثلج صخب المدينة والمستشفى. وشعرت بأنّ الغرفة، نائيةً عن المكان والزمان، تطوفُ في خضمّ الفلك الكونيّ.

جمعتُ بعضي إلى بعضي، تكوّرتُ متضائلةً، كيما أنزلقُ، صغيرةً، بين ذراعيه. لصق شفتيّ كان انتفاخ عضلاته الليّنة الوثيرة، الرائعة الجمال حين تكسوها قطرات الماء. وخيّل إليّ أنّه يكفي أن أمدّ لساني لكي أتذوّقها. مع ذلك لم تكن الملامسة هي ما أشتاق إليه بل الغَمْرة.

لمّا ألفيتُ نفسي في كنفِ عضلاته، سرت سكينة شهويّة في كياني.

. . . آهِ لو أمكنني أن أقيم على طهارةِ هذه الحال ما

حَييتُ كجسمٍ لا عضويّ. لو أمكنني البقاء على هذا النحو بصحبة أخي، من دون أن يتغيّر شيء أو يفسد أو يتعفّن. . .

كانت الأمنياتُ تتصاعد واحدةً تلو الأخرى. وتفيضُ سائلةً على هيئة دموع. أغمضتُ عينيّ فتدحرجت القطرات على صدره. كنت أشعر بالدفء، بالأمان، بالسكون، ولم يخلُ عناقنا حتّى من النشوة، غير أنّي لم أستطع أن أكفكف تلك الدموع.

. . . أجهشتُ بالبكاء حتّى خلت أنّني سأذوبُ، كُلّي، على صدرِه. وفي غمرةِ بكائي خيّل إليَّ أنّني أسمع الحفيف البلّوري للثلج المدوّمِ في الفضاءِ عندما يلامسُ الهواء الجليديّ.

لم أنتبه إلى أنّ الثلج بدأ يذوبُ ببطء. وذات يوم، فيما كنت أسلك الطريق المنحدرة المفضية إلى المستشفى، لفحت وجهي ريحٌ محمّلة بأريجِ شمس، فتوقّفتُ فجأةً وإذا بالثلج قد اختفى. كان أمرًا مؤلمًا بالنسبة لي، أن تسبقني تحوّلات المناخ، فرحتُ أفتّش عن بقايا الثلج وراء صندوق البريد وفي المجاري، ولم أعثر على أثرٍ منه.

ثمّ مات أخي في الفترة التي بدأت فيها بتلات أزهار الكرز تتساقط مدوّمة كندفِ الثلج. وقد صار جسمُه، في

twitter @baghdad_library

الخواتمِ، مثل مادّة من زجاج.

بعد أن لازمَه طوال تلك المدّة، غادر س. المستشفى سالكًا طريق الميتم مجدّدًا. كان أخي آخر مرضاه. ولم نلتقِ بعد ذلك. ولكنّني ببساطة، حين أفكّر في أخي، أستعيد ذكرى ليلة الثلج تلك عندما ضمّني إلى قلبِه، وأبكي.

twitter @baghdad_library

امرأة شابّة يَبْلغها أنّ أخاها مريض، وأنّه سيقضي الشهور الأخيرة من حياته طريح الفراش في المستشفى. تأتي لزيارته يومًا بعد يوم. ويومًا بعد يوم تزداد علاقتهما حميميَّة حتى تغدو مركز وجودهما. وفي كَنَفِ الغرفة البيضاء ينقضي الوقت على إيقاع الفصول.

يوكو أوغاوا نالت جائزة «أكوتاغاوا» الأدبية اليابانية عن روايتها الحَمْل عام ١٩٩١؛ صدر لها إلى اليوم أكثر من عشرين رواية تُرجم معظمُها إلى عدد كبير من اللغات.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف ريم الجندي